وإنّ من ألطف ما يمكن الإشارة إليه هو أنّ مادّة نكل الّتى منها التنكيل والنّكال تدور حول المنع وأنّها ذات علاقةٍ بالنّكل بكسر النّون بمعنى القيد وبمعنى حديدة اللّجام . وكلٌّ منهما مانعٌ للحركة[١] إنّ التّنكيل بالقوم والتّشريد بهم بمثابة النّكْل بمعنى القيد فى حقّ الكافرين الخائنين والّذين ينوون الخيانة . وإذا كانت الآية الكريمة تحدّثت عن الخائنين فعلاً وكيفيّة التّعامل معهم فإنّ الآية الكريمة التّالية تتحدّث عن الّذين ينوون الخيانة وكيفيّة التّعامل معهم فإلى .

الآيــة رقــم (٥٨)

قال تعالى : ﴿ وإمّا تخافنّ من قومٍ خيانةً فانبذ إليهم على سواء . إنّ الله لا يحبّ الخائنين ﴾ .

كما وقفنا عند القول فى صدر الآية الكريمة السّابقة : ﴿ فإمّا تثقفنّهم ﴾ نودّ أن نقف عند القول الّذى يقابله ويشابهه فى صدر الآية الكريمة التّالية : ﴿ وإمّا تخافنّ ﴾ ومن أهمّ ما يلاحظ بشأن الخوف أنّه متعلّقٌ بالمستقبل إذ الخوف توقّع مكروه عن أمارةٍ مظنونةٍ أو معلومة ، كما أنّ الرّجاء والطّمع توقّع محبوبٍ عن أمارةٍ مظنونةٍ أو معلومةٍ[٢] .

إنّ الآية الكريمة تخاطب فى أسلوب الشّرط كسابقتها[٣] المصطفى ﷺ وكلّ مؤمنٍ فى مركز القيادة بأنّه إن خاف وقتًا من الأوقات بسبب علاماتٍ ظاهرة وأدلّةٍ دامغة ، من قومٍ بينهم وبين المؤمنين عهدٌ وخشي منهم نيّةً على خيانة ، ورغبةً فى غدر ، فإنّ عليك أيّها الرّسول الكريم والنّبيّ العظيم ، وإنّ عليك أيّها القائد المؤمن أن تنبذ إلى القوم عهدهم وتطرح إليهم ميثاقهم الّذى نبذوه وطرحوه دليلاً على قلّة اعتدادهم به واهتمامهم له[٤] إنّ ذلك النّبذ أو الطّرح يكون على سواء ، أي حتّى

---

(١) انظر مقاييس اللّغة لابن فارس : « نكل » ٣٧٣/٥ .
(٢) مفردات الرّاغب الأصفهانى : « خوف » ١٦١ .
(٣) انظر الجدول فى إعراب القرآن وصرفه ٢١٦/٥ و٢١٧ .
(٤) انظر مفردات الرّاغب الأصفهانى : « نبذ » ٤٨٠ وتفسير ابن كثير ٣٢٠/٢ .

يستوي علمك وعلمهم بأنّ كلّ فريقٍ منكم حربٌ لصاحبه لا سلم[١] وحتّى يعتدل علمك وعلمهم بما عليه بعضكم لبعضٍ من المحاربة[٢] وتبرأ من الغدر[٣] .

ومن البيّن أنّ مثل هذا القرار لا يتّخذه القائد المسلم إلاّ عن علمٍ أكيدٍ ورأيٍ سديد ولَيدَيْنِ لليقظة والحذر وبثّ العيون وحسن تأويل الأقوال والأفعال ، النّوايا والتّلميحات . وبهذا نكون نحن المسلمين أمام درسٍ قرآنيٍّ مجيدٍ فى وجوب اليقظة الدّائمة وأخذ الحذر المستمرّ .

وفى التّذييل : ﴿ إنّ الله لا يحبّ الخائنين ﴾ تقرّر الآية الكريمة أنّ الله سبحانه وتعالى لا يحبّ الخائنين مطلقًا ، الّذين يخونون البشر ، ويستوى فى النّهي عن الخيانة المسلمون وسواهم . والّذين يخونون الله تعالى من الكافرين الّذين يشركون مع الله تعالى سواه جلّ وعلا فى العبادة .

ولمّا كان من كفّار قريش من نجا يوم بدرٍ من القتل أو الأسر أو الجراح فإنّ الآية الكريمة التّالية تعنيه فإلى :

الآية رقم (٥٩)

قال تعالى : ﴿ ولا يَحْسَبَنَّ الّذين كفروا سَبَقُوا . إنّهم لا يُعْجزون ﴾ .

تقول الآية الكريمة عن كفّار مكّة الّذين نجوا من القتل فى غزوة بدرٍ وقد قُتِل منهم سبعون ، ومن الأسر وقد أُسِرَ منهم سبعون ، ومن الجراح وما أكثر الّذين جُرِحوا فى بدرٍ من بقيّة الجيش الّذى كان عدده بين التّسعمائة والألف ، تقول الآية الكريمة : لا يحسبنّ الّذين كفروا ولا يظنّنّ الّذى نجوا فى المعركة أنّهم سبقوا الله تعالى وفاتوه . إنّهم لا يعجزون الله تعالى ولا يسبقونه فعليهم أن يستفيدوا من فترة الإمهال هذه إلاّ كان الأخذ شديدًا والعذاب أكيدًا . إنّ عليهم أن يتوبوا ويؤمنوا ويعملوا صالحًا وإلاّ فإنّ سنّة الله تعالى ماضيةٌ فى حقّهم كما مضت فى المكذّبين

(١و٢) تفسير الطّبري ٢٠/١٠ . (٣) تفسير الطّبري ١٩/١٠

السّابقين . وإنّ الآية الكريمة تذكّرنا بمثل قول الحقّ جلّ وعلا في سورة آل عمران[١] : ﴿ لا يغرّنّك تقلّب الّذين كفروا في البلاد . متاعٌ قليلٌ ثمّ مأواهم جهنّم وبئس المهاد ﴾ .

ولمّا كان المؤمنون المجاهدون في سبيل الله تعالى من بين جند الله تعالى الّذين لا يعلمهم إلاّ هو جلّ وعلا ، وكان الجهاد بحاجةٍ إلى بذل النّفس والنّفيس فإنّ الآية الكريمة التّالية تتحدّث في هذا المعنى فإلى .

الآيــة رقــم (٦٠)

قال تعالى : ﴿ وأعدّوا لهم ما استطعتم من قوّةٍ ومن رباط الخيل ترهبون به عدوّ الله وعدوّكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم . وما تنفقوا من شيءٍ في سبيل الله يُوَفَّ إليكم وأنتم لا تُظْلَمون ﴾ .

تأمر الآية الكريمة الصّحابة رضوان الله تعالى عليهم بقيادة المصطفى ﷺ ابتداءً ، كلّ أفراد الأمّة المسلمة بعد ذلك ، بأن يعدّوا لأعداء الله تعالى وأعدائهم من الكافرين وأن يهيّئوا لهم كلّ ما يستطيعون إعداده من قوّة ومن رباط الخيل . والرِّباط ، بكسر الرّاء ، مصدر ربطت ورابطت[٢] والّذي يُشَدُّ به رِباط[٣] يقال : قطع الظّبي رِباطه أي حِبالته[٤] والرِّباط ملازمة ثغر العدوّ ، كأنّهم قد رُبِطوا هناك فثبتوا به ولازموه[٥] ورَبْط الفَرَس شَدُّه بالمكان للحفظ ، ومنه رِباط الجيش . وسمّي المكان الّذي يُخَصّ بإقامة حَفَظةٍ فيه رِباطًا[٦] والمراد برباط الخيل تهيئتها للجهاد في سبيل الله تعالى وجعلها مستعدّةً كلّ لحظةٍ للاتّجاه نحو ميدان المعركة ، فهي مرابطةٌ في الأماكن المهيّئة لها كي تنطلق منها وعليها فرسانها المرابطون في تلك الأماكن

---

(١) الآية ١٩٦ و١٩٧ .
(٢) مفردات الرّاغب الأصفهاني : « ربط » ١٨٥ .
(٣) معجم مقاييس اللّغة لابن فارس : « ربط » ٤٧٨/٢ ..
(٤) معجم مقاييس اللّغة : « ربط » ٤٧٩/٢ .
(٥) معجم مقاييس اللّغة « ربط » ٤٧٨/٢ .
(٦) مفردات الرّاغب الأصفهاني : « ربط » ١٨٥ .

الملازمون للثّغور المستعدّون لبذل كلّ نفسٍ ونفيسٍ فى سبيل الله تعالى . ومن الأدلّة على أنّ المراد برباط الخيل رباط فرسانها أيضًا القول : ﴿ ترهبون به عدوّ الله وعدوّكم ﴾ والرّهبة مخافةٌ مع تحرّزٍ واضطراب[1] إنّ هذا الدّرك السّحيق من الخوف والاضطراب والذّلّ والهوان هو الّذى يراد لأعداء الله تعالى أن يتّصفوا به حينما يفاجأون بجند الله تعالى يمتطون خيلهم عندهم وعلى رءوسهم . وبالإضافة إلى إرهاب جند الله تعالى أعداء الله تعالى وأعداءهم هم بإعدادهم ما استطاعوا من قوّة يرهبون كذلك مَنْ دون أولئك الأعداء وغيرهم من المنافقين واليهود وبقيّة الكافرين . إنّ أولئك الكافرين لا يعلمهم المؤمنون ولكنّ الله سبحانه وتعالى يعلمهم .

ومن مظاهر رحمة الله تعالى بعباده المؤمنين أنّه جلّ وعلا لا يكلّفهم إلاّ ما يستطيعونه ويطيقونه ، ولهذا جاء النّصّ على الاستطاعة فى القول : ﴿ وأعدّوا لهم ما استطعتم من قوّة ﴾ .

ومع أنّ القوّة تشمل كلّ ما يحتاجه الجيش المسلم المظفّر بإذن الله تعالى ، وفى مقدّمة ما يحتاجه الجيش فى القديم الخيل فإنّ السّياق يخصّ الخيل المرابطة للجهاد فى سبيل الله تعالى بالحديث ، دليلاً على أهمّيّة الخيل ، فقد جاء فى الحديث الّذى رواه البخاريّ فى صحيحه أنّ رسول الله ﷺ قال : الخيل معقودٌ فى نواصيها الخير إلى يوم القيامة ، الأجر والمغنم[2] ومن البيّن أنّ أهمّ ما تمتاز به الخيل السّرعة ، ومن البيّن أنّ المراد بالقوّة الرّمي ، فقد روى الأئمّة أحمد ومسلم وأبو داود وابن ماجه أنّ رسول الله ﷺ قال وهو على المنبر : ألا إنّ القوّة الرّمي ، ألا إنّ القوّة الرّمي[3] وكلّ ذلك معناه أنّ القوّة متطوّرةٌ ومتغيّرةٌ بتطوّر العصور وتغيّرها . إنّ على المسلمين أن يعدّوا ما استطاعوا من قوّة تتجلّى فى كلّ أنواع السّلاح . على أنّ ثمّة سلاحًا ينبغى أن يتقن المسلمون عمله وهذا السّلاح يتّسم بصفة السّرعة الّتى تبيّناها فى الخيل . إنّ الخيل إذا كانت أسرع ما يمتطيه المقاتلون قديمًا فإنّ على المسلمين أن

---

(١) مفردات الرّاغب الأصفهاني : « رهب » ٢٠٤ .

(٢) تفسير ابن كثير ٣٢٢/٢ .

(٣) تفسير ابن كثير ٣٢١/٢ .

يعدّوا أسرع الصّواريخ والطّائرات والغوّاصات والبواخر والمراكب وما إلى ذلك . وإنّ القوّة الّتى يعدّها المسلمون ينبغى أن تشمل أشدّ أنواع الأسلحة فتكًا وتدميرًا . إنّ على المسلمين أن يعدّوا القوّة الّتى يستطيعون بإذن الله تعالى أن يدخلوا بها الرّعب فى قلوب أعدائهم الظّاهرين والمستترين على السّواء . وإنّ على المسلمين أن يحذقوا هذا الدّرس القرآنيّ جيّدًا وأن يترجموه إلى عمل .

ولمّا كان السّلاح أو إعداد القوّة بحاجةٍ إلى المال ، فالمعروف أنّ الجهاد فى سبيل الله تعالى بحاجةٍ إلى النّفيس من المال إضافةً إلى النّفيس من الأنفس ، فقد تحدّثت الآية الكريمة فى شقّها الآخر عن المال عن طريق الحثّ على إنفاقه فى سبيل الله تعالى والوعد بالثّواب الجزيل عليه من الله تعالى وإثبات العدل عن طريق نفي الظّلم بحذف حسنة أو إضافة سيّئة .

ومن البيّن أنّ ثمّة أمرًا بإعداد ما نستطيع من قوّة ، وأنّ ثمّة حثًّا على الإنفاق فى سبيل الله تعالى . إنّ الجهاد فى سبيل الله تعالى يتمثّل فيه شرط صلاح العمل بمقياس الإسلام ، وإنّ النّصّ على أنّ المال الّذى ينفق ينبغى أن يكون فى سبيل الله تعالى يتمثّل فيه شرط صلاح النّيّة وسلامة القصد . إنّ شرطي صلاح النّيّة وصواب العمل ينبغى توافرهما معًا كي يتفضّل الله تعالى بقبول العمل والثّواب عليه .

وبشأن الّذين لا يعلمهم المؤمنون ويعلمهم الله تعالى يرى مقاتل بن حيّان وعبد الرّحمن بن زيد بن أسلم أنّهم المنافقون[1] والله أعلم .

---

(١) تفسير ابن كثير ٣٢٢/٢ .

[١٠]

« إن مالوا إلى المسالمة فمل إليها ، والله تعالى حسبك ومن اتّبعك من المؤمنين ، وحرّضهم على القتال »

الآيات (٦١ ـ ٦٦)

وَإِن جَنَحُوا
لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦١﴾
وَإِن يُرِيدُوٓا۟ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُ ۚ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ
بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ۚ لَوْ أَنفَقْتَ
مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ
ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَسْبُكَ
ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَرِّضِ
ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ ۚ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ
يَغْلِبُوا۟ مِاْئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفًا مِّنَ
ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ ٱلْـَٰٔنَ خَفَّفَ
ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٌ
صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا۟ مِاْئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفَيْنِ
بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٦٦﴾

لمّا كان الكافرون عند الله تعالى شرّ الدّوابّ وكان على المؤمنين إعداد ما استطاعوا من قوّةٍ لإرهاب أعداء الله تعالى فإنّ الثّمرة الشّهيّة لحسن استعمال المؤمنين للقوّة كما يبدو من أولى آيات القِسْم أن يميل الكافرون إلى مسالمة المؤمنين وفى هذه الحال على المؤمنين أن يميلوا إلى المسالمة كذلك وأن يتوكّلوا على الله تعالى السّميع لكلّ قول ومن ذلك إعلان الميل للمسالمة العليم بكلّ نيّةٍ وقولٍ وفعل . إنّ القوم إن أرادوا بإعلان المسالمة أن يخدعوك أيّها الرّسول الكريم والنّبيّ العظيم وأيّها القائد المؤمن فإنّ حسبك الله تعالى وكافيك وحسبك المؤمنون من المهاجرين

والأنصار . إنّه جلّ وعلا هو الّذى أيّدك بنصره وقوّاك بالمؤمنين وألّف بين قلوبهم . إنّك أيّها الرّسول الكريم ، وأيّها القائد المؤمن الّذى لك فى المصطفى ﷺ أسوةٌ حسنة ، لو أنفقت ما فى الأرض جميعًا من مال ونَشَب ما ألّفت بين قلوب أتباعك من المؤمنين ولكنّ الله جلّ وعلا ألّف بينهم ثمرةً لتأليف الله تعالى العزيز الحكيم بين قلوبهم . ويتحوّل السّياق إلى مخاطبة المصطفى ﷺ فى مطلع آيتين كريمتين بهذا النّداء : ﴿ يا أيّها النّبيّ ﴾ الّذى يتضمّن صفة النّبوّة الّتى تعتبر هي وصفة الرّسالة أهمّ صفتين له عليه الصّلاة والسّلام ، لذا يناديه جلّ وعلا بهما فى الذّكر الحكيم . إنّه عليه الصّلاة والسّلام لا ينادَى باسمه ولكن بالقول : ﴿ يا أيّها النّبيّ ﴾ ﴿ يا أيّها الرّسول ﴾ إنّ النّداء الأوّل بصفة النّبوّة يُرْدَف ببيان أنّ المصطفى ﷺ حسبه الله تعالى وكافيه وحسبه من اتّبعه عليه الصّلاة والسّلام من المؤمنين . وإنّ النّداء الآخر بصفة النّبوّة يردف بأمره عليه الصّلاة والسّلام بأن يحرّض المؤمنين الّذين ألّف الله تعالى بينهم على القتال فى سبيل الله تعالى . إنّ الإسلام حينما كان فى فجره وكان عدد المؤمنين قليلاً كان باستطاعة المؤمن المجاهد الواحد أن يغلب بإذن الله تعالى العشرة من الّذين كفروا بسبب أنّهم قومٌ لا يفقهون . وإنّ الإسلام حينما استوى على سوقه وكثر المسلمون وظهر ضعفهم بالقياس إلى السّابقين فإنّ باستطاعة المؤمن المجاهد الواحد أن يغلب بإذن الله تعالى الاثنين من الكافرين . وبشأن العمليّة الحسابيّة الّتى نصّت عليها الآيتان الأخيرتان فى القسم راعنا حقًّا النّظم البديع ، واللّفظ اللّطيف ، والمعنى الرّشيق ، والحذف البليغ . إنّ القرآن الكريم هو دائمًا وأبدًا الّذى يرضى كلّ عقلٍ بفصوص حكم معانيه ، ويشبع كلّ نفس ، ويشنّف كلّ أذن ، بانسياب صوته ، وحلاوة جرسه ، وجميل مبانيه .

الآيــة رقــم (٦١)

قال تعالى : ﴿ وإن جنحوا للسَّلم فاجنح لها وتوكّل على الله . إنّه هو السّميع العليم ﴾ .

يُفْهَمُ من الآية الكريمة أنّ المؤمنين حينما يكونون قد أعدّوا بفضل الله تعالى ما استطاعوا من قوّة وقادرين بعون الله تعالى على استعمال تلك القوّة يكون ثمرة ذلك بإذن الله تعالى أن يجنح الخصوم إلى السَّلْم ، ويميلوا[١] إلى المسالمة والمصالحة[٢] وفى هذه الحال مِلْ أيّها الرّسول الكريم والنّبيّ العظيم إلى المصالحة ، ومل أيّها القائد المؤمن إلى المسالمة .

ويلاحظ أنّ الّذين يجنحوا إلى السّلام ابتداءً هم خصوم الإسلام . وبهذا يتبيّن أنّ على المسلمين فى كلّ زمانٍ ومكان أن يكونوا الغاية فى امتلاك القوّة وحسن استعمالها كي يميل الخصوم إلى السّلام ابتداءً . وبشأن الأصل اللّغويّ : « جنح » من أهمّ ما يلاحظ على معناه إضافةً إلى المَيْل اللّينُ والطّواعية . ومن الأدلّة على ذلك الجَناح للطّائر . يقال : جنح الطّائر أي كسر جَناحه[٣] وبهذا يتبيّن أنّ جنوح الخصوم إلى السّلام أمام قوّة المسلمين بباعث اللّين والضّعف . وليست هذه المعادلة صعبة التّصوّر ، لأنّ وجود القوّة عند المسلمين الّذين يحسنون استعمال تلك القوّة ويحرصون فى جهادهم فى سبيل الله تعالى على إحدى الحسنيين ، النّصر أو الشّهادة ، يعنى وجود الضّعف واللّين والاسترخاء عند الخصوم ، بإذن الله تعالى .

وإنّ أمر الحقّ جلّ وعلا للقيادة المسلمة بأن تستجيب لدعوة الخصوم إلى السّلام وفق تعاليم الإسلام المعروفة معناه أنّ الإسلام هو دين السّلام شريطة ألاّ يقف الخصوم حجر عثرةٍ فى طريق الدّعوة إلى دين الإسلام الّذى لا يقبل الله تعالى من

---

(١) تفسير الطّبري ٢٤/١٠ وتفسير ابن كثير ٣٢٢/٢ والجلالين ومعجم مقاييس اللّغة « جنح » ٤٨٤/١ .
(٢) تفسير ابن كثير ٣٢٢/٢ وتفسير الطّبري ٢٤/١٠ .
(٣) مفردات الرّاغب الأصفهاني : « جنح » ١٠٠ .

عبدٍ دينًا سواه ، لأنّ دين الإسلام الّذى بعث الله تعالى بـه محمّـد بـن عبـد الله ﷺ ناسخٌ لكلّ دينٍ سماويّ ومن باب الأحرى غير السّماويّ من الأديان .

وإنّما يجنح المسلمون إلى السّلام لأنّ لهم الظّاهر . وبما أنّ الظّاهر يوحى بأنّ القوم جادّون فى الحصول على السّلام فإنّ على المسلمين أن يكتفوا بهذا الظّاهر ويعتمـدوا عليه . أمّا الباطن الّذى لا يعلمه إلاّ الله تعالى فإنّه موكـولٌ إليـه جـلّ وعـلا . فعلـى المسلمين فيما يتّصل بالباطن أو السّرائر أن يتوكّلوا على الله تعـالى السّـميع العليـم . وقد قال عزّ من قائل[١] : ﴿ ومن يتوكّل على الله فهو حسبه ﴾ أي فهو جلّ وعلا كافيه[٢] .

وبشأن التّذييل : ﴿ إنّه هـو السّـميع العليـم ﴾ نحـن بصـدد صيغـتي المبالغـة سميع وعليم ، فلا يخفى على الله تعالى شيءٌ فى السّماء والأرض وقـد أحـاط جـلّ وعـلا بكلّ شيءٍ علمًا .

ويصحّ أن يقال إنّ كلاًّ من الصّفتين الحسنيين تتمشّى مع المعنى الّذى يلائمها فى الآية الكريمة . إنّنا بصدد دعوةٍ مسموعةٍ من الخصوم إلى السّلام تتمشّى من حيث السّماع والظّهور مع الهيئة الّتى يظهـر فيهـا الخصـوم الّذيـن جنحـوا إلى السَّلْم . إنّ صفة السّميع تتمشّى مع الأصوات المسموعة الّتى ارتبـط بهـا ظـاهر الخصـوم الّـذى يُفْهَم منه الحرص على السّلام . وإنّ صفة العليم تتمشّى مع حقيقة نوايـا القـوم الّتـى لا يعلمها إلاّ الله تعالى . إنّ القوم إن كانوا صادقين فى دعوتهم أو كاذبين فإنّ الله تعالى عليمٌ بحقيقة نيّتهم .

وبشأن نيّة القوم إن كانت ملتويّة تتحدّث .

---

(١) سورة الطّلاق ٣ .

(٢) الجلالين وتفسير الطّبري ١٠/٢٥ وتفسير ابن كثير ٢/٣٢٣ .

الآيتان رقم (٦٢ و٦٣)

قال تعالى : ﴿ وإن يريدوا أن يخدعوك فإنّ حسبك الله . هو الّذى أيّدك بنصره وبالمؤمنين . وألّف بين قلوبهم . لو أنفقت ما فى الأرض جميعًا ما ألّفت بين قلوبهم ولكنّ الله ألّف بينهم . إنّه عزيزٌ حكيم ﴾ .

تخاطب الآية الكريمة الأولى المصطفى ﷺ وتقول له : إنّ أولئك الخصوم الّذين أظهروا الرّغبة فى السّلم ومالوا إليه وتجاوَبْتَ معهم بشأنه وملت مثلهم إلى المسالمة والموادعة ، امتثالاً لأمر ربّك الّذى أمرك بالميل إلى السّلم ، إن هم مالوا إليه ، وبالتّوكّل عليه جلّ وعلا وحده لا شريك له ، إنّ أولئك الخصوم إن أرادوا فى الحقيقة أن يخدعوك ويستفيدوا من فترة السّلم ووقت الصّلح للاستعداد للكرّة عليك والغدر بك فإنّ حسبك وكافيك الله تعالى وحده لا شريك له . وإنّ هذا التّوجيه الرّبّانيّ للمصطفى ﷺ يتّجه وراء ذلك إلى كلّ قيادةٍ مسلمة . إنّ الوفاء بالعهود والعقود من أهم نعوت القيادة المسلمة فى حربها مع خصوم هذا الدّين . ومادامت القيادة المسلمة مستمسكةً بتعاليم الإسلام متوكّلةً على ربّها جلّ وعلا فإنّ اللّه سبحانه وتعالى لن يخذلها حينما يغدر الخصوم بها لأنّها مالت إلى السّلم امتثالاً لأمر مولاها جلّ وعلا الّذى أمرها بالميل إلى السّلم إن مال الخصوم إليه وبالتّوكّل على الله تعالى السّميع لكلّ صوت العليم وحده لا شريك له بالسّرائر . إنّ الخصوم إن نكثوا العهود ونقضوا المواثيق وخانوا وغدروا فإنّ الله سبحانه وتعالى هو كافى المصطفى ﷺ وحسبه ، وهو جلّ وعلا الّذى ينصر عبده ، ويعزّ جنده ، ويهزم الأعداء وحده ، بتسليط جنده عزّ وجلّ الّذين لا يعلمهم إلاّ هو ، على أولئك الغادرين الخائنين .

وتبيّن الآية الكريمة فى شقّها الآخر الموصول بالآية الكريمة التّالية معنى القول : ﴿ فإنّ حسبك الله ﴾ إنّ ثمّة تجربةً عاشها المصطفى ﷺ والمؤمنون فى غزوة بدر ، دليلاً على أنّ الله سبحانه وتعالى ينصر من ينصره . إنّ القول فى الآية الكريمة :

﴿ هو الّذى أيّدك بنصره وبالمؤمنين ﴾ يبيّن أنّ الله تعالى هو الّذى أيّد المصطفى ﷺ وقوّاه بنصره إيّاه على أعدائه[١] وبالمؤمنين مهاجرين وأنصارا[٢] .

وإنّ القول فى الآية الكريمة التّالية : ﴿ وألّف بين قلوبهم ﴾ يشير إلى شرطٍ من أهمّ شروط النّصر بإذن الله تعالى سبق أن نبّهت عليه السّورة الكريمة فى أثناء ذكر شروط النّصر وذلك بالنّهي عن التّنازع والخصام في الآية الكريمة السّادسة والأربعين . إنّ ربّ العزّة وحده لا شريك له هو الّذي ألّف بينهم وجمع قلوبهم على كلمة الحقّ ووحّد كلمتهم وصفّهم . ما أعظم قدرة الله تعالى الّتى تجلّت فى التّأليف بين قلوب هذه الفئات الثّلاث ، المهاجرين ، الأوس ، الخزرج . إنّ العداء كان مستحكمًا قبل الإسلام بين أبناء العمومة من الأوس والخزرج بحيث إنّ الحروب السِّجال بين ابني قَيْلَة من الأوس والخزرج الّذين ينتسبون إلى جدّتهم قيلة استمرّت مائةً وعشرين سنة[٣] وابتدأت بحرب سُمَير ، وانتهت بحرب بُعاثٍ[٤] وكان يوم بُعاث آخر الحروب المشهورة بين الأوس والخزرج ثمّ جاء الإسلام واتّفقت الكلمة واجتمعوا على نصر الإسلام وأهله وكفى الله المؤمنين القتال[٥] .

وإنّ من ألطف ما يمكن الإشارة إليه دليلاً على استحكام العداء بين الأوس والخزرج قبل الإسلام أنّ كلاً من الأوس والخزرج بعد بيعة العقبة الأولى[٦] وبعث المصطفى ﷺ مصعب بن عمير الدّاريّ كي يقرئ أهل المدينة المنوّرة القرآن ويعلّمهم الإسلام ويفقّههم فى الدّين فكان يُسَمّى المقرئ بالمدينة ، أنّ كلاً من

(١و٢) تفسير الطّبري ١٠/٢٥ . (٣) انظر تفسير الطّبري ٤/٢٢ فما بعدها .

(٤) الكامل فى التّاريخ لابن الأثير ١/٦٥٥ - ٦٨٤ .

(٥) الكامل فى التّاريخ ١/٦٨١ .

(٦) كان بين النّبيّ ﷺ وبين الأنصار عند العقبة قبل الهجرة ثلاثة لقاءات . اللّقاء الأوّل وقد التقى النّبيّ ﷺ بستّة نفر من الخزرج هداهم الله تعالى إلى الإسلام فى ذلك الالتقاء . انظر السّيرة النّبويّة ٢/٤٢٨ وفى العام المقبل كانت العقبة الأولى الّتي شهدها من الأوس والخزرج معًا اثنا عشر رجلاً بايعوه ﷺ على بيعة النّساء لاشتراك الرّجال والنّساء فى صيغة البيعة الّتى لم يكن من بنودها القتال . السّيرة النّبويّة ٢/٤٣١ وفى العام المقبل كانت العقبة الثّانية الّتى شهدها من الأنصار ثلاثةٌ وسبعون رجلاً وامرأتان . السّيرة النّبويّة ٢/٤٤١ .

الأوس والخزرج كرهوا أن يؤمّهم فى الصّلاة خزرجيٌّ أو أوسيّ ورضوا بأن يؤمّهم مصعب بن عمير رضي الله تعالى عنه[١] ومن الأدلّة على العداء المستحكم بين الفريقين قبل الإسلام ما جرى على لسان النّبيّ ﷺ مخاطبًا الأنصار بعد توزيعه غنائم حنين على المؤلّفة قلوبهم ولم يكن فى الأنصار منها شىء فوجدوا فى أنفسهم، ومذكّرًا ﷺ لهم فضل الله تعالى عليهم. وممّا جاء فى خطابه ﷺ لهم: «ألم آتكم ضُلّالاً فهداكم الله، وعالةً فأغناكم الله، وأعداءً فألف الله بين قلوبكم»[٢]

ومن الآيات الكريمات الّتى أومأت إلى العداء المستحكم بين الأوس والخزرج قبل الإسلام هذه الآية الكريمة من سورة آل عمران[٣] قال تعالى: ﴿واعتصموا بحبل الله جميعًا ولا تفرّقوا. واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداءً فألّف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانًا وكنتم على شفا حفرةٍ من النّار فأنقذكم منها. كذلك يبيّن الله لكم آياته لعلّكم تهتدون﴾[٤] ومن الآيات الكريمات الّتى أومأت إلى حال المهاجرين الفقراء الّذين أخرجهم المشركون من ديارهم وأموالهم، وإلى إيثار الأنصار لهم على أنفسهم رغم شديد حاجتهم إلى ما يؤثرون به إخوانهم المهاجرين، دليلاً على تأليف الله تعالى القلوب الّتى جمعها عزّ وجلّ على الهدى قول الحقّ جلّ وعلا فى سورة الحشر[٥]: ﴿للفقراء المهاجرين الّذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلاً من الله ورضوانًا وينصرون الله ورسوله. أولئك هم الصّادقون. والّذين تبوّءوا الدّار والإيمان من قبلهم يحبّون من هاجر إليهم ولا يجدون فى صدورهم حاجةً ممّا أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خَصاصة. ومن يُوقَ شحّ نفسه فأولئك هم المفلحون﴾.

وإنّ من ألطف ما يمكن أن يلاحظ فى التّرابط بين الآيتين الكريمتين التّدرّج والتّحوّل من التّأييد الّذى يأتى من الخارج فى القول: ﴿هو الّذى أيّدك بنصره

---

(١) السّيرة النّبويّة ١/٤٣٤.
(٢) السّيرة النّبويّة ٤/١٤٢.
(٣) الآية ١٠٣.
(٤) درسنا الآية الكريمة فى كتابنا تأمّلات فى سورة آل عمران ٣٠٤ ـ ٣٠٧.
(٥) الآية ٨ و٩.

وبالمؤمنين ﴾ إلى التّأليف بين القلوب الّذى يتّصل به انشراح الصّدور وابتهاج النّفوس فى القول : ﴿ وألّف بين قلوبهم ﴾ وليس بخافٍ ما يترتّب على تأليف القلوب من سلامة النّيّات وصدق القول والإخلاص فى العمل . وقد كان العمل هنا فى صورة الجهاد فى سبيل الله تعالى ، فهو إذن أشرف عمل لأنبل مقصد .

والحقيقة أنّا نستطيع أن ننظر إلى القول : ﴿ هو الّذى أيّدك بنصره وبالمؤمنين وألّف بين قلوبهم ﴾ من ثلاث زوايا .

الزّاوية الأولى وتتعلّق بالقول : ﴿ هو الّذى أيّدك بنصره ﴾ فالله سبحانه وتعالى هو وحده لا شريك له الّذى أيّد المصطفى ﷺ وقوّاه بنصره عليه الصّلاة والسّلام فى بدر . ومن مظاهر التّأييد الّتى نصّت عليها السّورة الكريمة التّأييد بالملائكة وإنزال الماء من السّماء . ومن البيّن أنّ هذا التّأييد يتجلّى فيه الجانب السّماويّ بوضوحٍ شديد .

والزّاوية الثّانية تتعلّق بالقول : ﴿ وبالمؤمنين ﴾ والمراد بهم المهاجرون والأنصار . إنّ كلاًّ من المهاجرين والأنصار قد أيّد الله سبحانه وتعالى بهم المصطفى ﷺ فى بدرٍ وقبل بدر وكذلك بعد بدر . وهذا واضح . والمعروف أنّ المؤمنين الّذين أيّد الله تعالى بهم فى بدرٍ حبيبه ﷺ كانوا هم أنفسهم قلّةً وأذلّة . وكما أيّد الله تعالى المصطفى ﷺ بالمؤمنين أيّد جلّ وعلا أولئك المؤمنين . فالفضل والمنّة لله تعالى أوّلاً وآخرًا . ومن البيّن أنّ هذا التّأييد بالمؤمنين المهاجرين والأنصار يتجلّى فيه كذلك الجانب السّماويّ بوضوحٍ شديد .

والزّاوية الثّالثة تتعلّق بالقول : ﴿ وألّف بين قلوبهم ﴾ وإنّ تأليف الحقّ جلّ وعلا قلوب المؤمنين لا دخل لمخلوق فى شىءٍ منه . بمعنى أنّ المؤمنين إذا كان يصحّ أن يكون منهم بعون الله تعالى التّأييد الحسّيّ والمعنويّ فإنّهم هم أنفسهم محلّ الفضل من الله تعالى عليهم فى التّأليف بين قلوبهم .

وهكذا يتّضح من ناحيةٍ الدّور الكبير للتّأييد بالنّصر على الأعداء فى الحروب الميدانيّة فى المقام الأوّل . والمعروف أنّ الحروب لا تدوم . كما يتّضح من ناحيةٍ

أخرى الدّور الكبير للتّأييد معنويًّا بالتّأليف بين القلوب . والمعروف أنّ التّأليف بين القلوب من شروط النّصر بإذن الله تعالى ، فقد جاء فى الآية الكريمة السّادسة والأربعين من السّورة الكريمة فى هذا المعنى قول الحقّ جلّ وعلا : ﴿ ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم ﴾ والمعروف كذلك أنّ التّأليف بين القلوب من شروط استمرار النّصر بإذن الله تعالى مستقبلاً فى كلّ المواطن . وبذلك يكون التّأليف بين القلوب عاملاً غايةً فى الأهمّيّة ، والدّليل على ذلك حديث الآية الكريمة بعد ذلك حول التّأليف بين القلوب . وكي نلمّ بشيءٍ من معنى قول الحقّ جلّ وعلا : ﴿ لو أنفقت ما فى الأرض جميعًا ما ألّفت بين قلوبهم ولكنّ الله ألّف بينهم ﴾ فى الإمكان أن ننظر إلى خريطة العالم المأهول فى فجر الإسلام ونتدبّر فضل الله تعالى على المسلمين بتمكينهم من فتح زهاء ثلث ذلك العالم فى زهاء ثلث قرن وهم الأقلّ عددًا وعدّة . إنّ تأليف الله تعالى بين قلوب المؤمنين وجمعها على الهدى من أهمّ أسباب النّصر ، لأنّ المجاهدين فقراء فى مجموعهم ، ولأنّ المجاهدين فى مجموعهم هم الّذين يموّل الواحد منهم ذاته بما يحتاج إليه من أدوات القتال . إنّ القلوب بفضل الله تعالى قد تألّفت واجتمعت على الهدى . وما أعظم هذه المنّة من الله تعالى فقد اتّجهت طاقة الأمّة المسلمة كلّها من أجل الهدف النّبيل والغاية السّامية برفع راية التّوحيد عاليةً خفّاقةً فى الخافقين[1] وبسبب اجتماع القلوب على الهدى وشعور أصحابها بالمسئوليّة الثّقيلة الملقاة على عاتقها وبذل النّفيس والنّفس بفضل الله تعالى فى سبيله جلّ وعلا خفّ الكثير من العبء عن كاهل الدّولة الإسلاميّة الّتى بلغت طموحاتها أقصى مدٍّ لها بعونٍ من الله تعالى وتوفيق . ولا ننسى دور الغنائم فى تمويل الجيوش .

وإنّ لنا نحن المسلمين فى أيّامنا هذه دليلاً حيًّا على تأليف الله تعالى بين قلوب الّذين يجاهدون فى سبيله جلّ وعلا وإمدادهم بالعون منه جلّ وعلا وتأييدهم بالنّصر ، وأعنى الجهاد الأفغانى . إنّ فئةً قليلةً مؤمنةً يشبه حالها فى القلّة والذّلّة حال المؤمنين

---

(١) الخافقان المشرق والمغرب لأنّ اللّيل والنّهار يخفقان فيهما أي يتحرّكان .

فى بدر تقاتل أمّةً من أبشع أمم الأرض فتكًا وأشدّهم بطشًا . إنّ إيمان تلك الفئة القليلة بالله تعالى وجمع الله تعالى كلمتها على الحقّ وسلامة نيّة تلك الفئة وصحّة قصدها اقترن به كلّه التّأييد من الله تعالى بالنّصر لها على أمّة الكفر والبغي . ما أكثر ما تملك أمّة الضّلال والطّغيان من وسائل القتال المادّيّة وما أفقرها روحيًّا . وفى المقابل ما أكثر ما تملك فئة الإيمان والرّحمن فى مجال الرّوحانيّات والمعنويّات فلم تغن عن أمّة الإلحاد قوّتها المادّيّة الهائلة الّتى اندحرت بفضل الله تعالى أمام نداء : الله أكبر ، تحت لواء الإسلام العالى الخفّاق المكتوب عليه بلسان المقال أو الحال : لا إله إلاّ الله محمّدٌ رسول الله . إنّ المجاهدين الأفغان لو لم يؤلّف الله تعالى بين قلوبهم لما حقّق بعضًا من ذلك النّصر إنفاقُ ما فى الأرض جميعًا من مالٍ وعَرَض . وإنّ هذا التّأليف بين القلوب بفضل الله تعالى هو السّبب وراء ما حقّقه الإسلام فى فجره من انتصاراتٍ باهرة وما حقّقه بعد ذلك ويحقّقه فى كلّ زمانٍ ومكان . إنّ على المسلمين أن يعوا هذا الدّرس جيّدًا وأن يتّقوا الله تعالى وحده لا شريك له وأن يقولوا قولاً سديدًا .

وليس بخافٍ علاقة التّأليف بفضل الله تعالى بين القلوب بالأمر فى أولى آيات السّورة الكريمة بتقوى الله تعالى وإصلاح ذات بينهم . فالتّرابط وثيق بين أجزاء الكلام والتّلاحم واضح .

وإنّه بالنّظر إلى القول : ﴿ وألّف بين قلوبهم لو أنفقت ما فى الأرض جميعًا ما ألّفت بين قلوبهم ولكنّ الله ألّف بينهم ﴾ يلفت انتباهنا القول : ﴿ ولكنّ الله ألّف بينهم ﴾ بمعنى أنّ الآية الكريمة لا يجىء فيها القول : ولكنّ الله ألّف بين قلوبهم . إنّ السّياق يقرّر أوّلاً أنّ الله سبحانه وتعالى ألّف بين قلوب المؤمنين . هذه هي القاعدة وهذا هو الأصل . وإنّ السّياق يقرّر بعد ذلك أنّ أيّ مخلوق ، ولو كان المصطفى المختار ﷺ ، لو أنفق ما فى الأرض جميعًا من أجل تأليف قلوب جماعةٍ واحدة لا يستطيع أن يحقّق شيئًا ممّا يريد إن لم يشأ الله تعالى ذلك . إنّ المال مصدر فرقةٍ وشقاق ، وليس مصدر وحدةٍ واتّفاق . وإنّ السّياق يقرّر بعد ذلك أنّ الله

سبحانه وتعالى : ﴿ ألّف بينهم ﴾ بمعنى أنّ التّأليف بين القلوب استتبعه الاتّفاق بين المؤمنين على الوسيلة والغاية . وبهذا يتبيّن أنّ البشر منتهى ما يطمحون إليه ويعملون من أجله وقد ينجحون بفضل الله تعالى فى تحقيقه هو وما يترتّب عليه محاولة توحيد الصّفوف . إنّهم يقفون عند المحاولة ولا يتعدّونها اضطرارًا لا اختيارًا . وفى مقابل ذلك لا حدّ لقدرة الله تعالى العزيز فى ملكه الحكيم فى صنعه الّذى يؤلّف القلوب ويوحّد الصّفوف ويهدى الّذين جاهدوا فيه سبله جلّ وعلا حتّى يتحقّق بإذنه النّصر الّذى تتغنّى به أمّة الإسلام خلال بياض الأيّام وسواد اللّيالى ما دام اللّيل والنّهار . ولله وحده لا شريك له الحمد والمنّة .

ولمّا كان هذا الفريق الصّادق من المؤمنين هو المستعدّ بفضل الله تعالى للبذل والتّضحية فإنّ الآية الكريمة التّالية تنوّه بشأنه فإلى .

الآيــة رقــم (٦٤)

قال تعالى : ﴿ يا أيّها النّبيّ حسبك الله ومن اتّبعك من المؤمنين ﴾ .

ومن العلماء من ذهب إلى أنّ المعنى : يا أيّها النّبيّ كافيك الله تعالى وكافيك من اتّبعك من المؤمنين من المهاجرين والأنصار ، ومن العلماء من ذهب إلى أنّ المعنى : يا أيّها النّبيّ كافيك الله تعالى وكافى من اتّبعك من المؤمنين[1] وكلا الرّأيين صحيح . ونحن إلى الرّأي الأوّل أميل . والله أعلم .

إنّ الآية الكريمة تخاكب المصطفى ﷺ بصفة النّبوّة وهي إحدى صفتين للمصطفى ﷺ ينادى الحقّ جلّ وعلا بهما حبيبه المصطفى ﷺ خلافًا لسائر المصطفَيْنَ الأخيار الّذين ينادَون بأسمائهم ابتداءً بآدم عليه السّلام أبى البشر ونوح عليه السّلام أوّل المرسلين وانتهاءً بموسى وعيسى عليهما الصّلاة والسّلام . أمّا الصّفة الأخرى الّتي ينادى الحقّ جلّ وعلا بها حبيبه المصطفى ﷺ فإنّها صفة

---

(١) انظر مثلاً تفسير القرطبي ٢٨٨٢ وتفسير الطّبري ٢٦/١٠ وتفسير ابن كثير ٣٢٤/٢ والجدول فى إعراب القرآن وصرفه ٢٢٣/٥ وتفسير ابن عطيّة ٣٦٨/٦ والبحر المحيط ٥١٥/٤ .

الرّسالة . وما أكثر المواطن الّتى نادى الحقّ جلّ وعلا فيها المصطفى ﷺ فى القرآن الكريم بالقول : ﴿ يا أيّها النّبيّ ﴾ ومنها الموطن الّذى نحن بصدده . أمّا النّداء بصفة الرّسالة وذلك بالقول : ﴿ يا أيّها الرّسول ﴾ فقد جاء فى موضعين اثنين فى القرآن الكريم كلّه ، وهذان الموضعان هما الآيتان الكريمتان من سورة المائدة الحادية والأربعون والسّابعة والسّتّون[١] .

إنّ المصطفى ﷺ وهو الأسوة الحسنة لنا نحن المسلمين يناديه الحقّ جلّ وعلا بإحدى عظيم صفتيه عليه الصّلاة والسّلام فى القول : ﴿ يا أيّها النّبيّ ﴾ والمعروف أنّ مرتبة النّبوّة تعلوها مرتبة الرّسالة وأنّ مرتبة النّبوّة هي الطّريق الوحيد بين يدي مرتبة الرّسالة . وعليه فكلّ رسولٍ نبيّ وليس كلّ نبيٍّ رسولا[٢] وإنّ المصطفى ﷺ يخبره ربّه جلّ وعلا بأنّه عزّ وجلّ كافيه وحسبه ، وبأنّ المؤمنين مهاجرين وأنصارًا كافوه عليه الصّلاة والسّلام وحسبه . وبذلك تأخذ الآية الكريمة بسببٍ من آي الذّكر الحكيم الّتى تأمر باتّخاذ المؤمنين وحدهم أولياء . ومن هذه الآيات الكريمات قولُ الحقّ جلّ وعلا فى سورة المائدة[٣] : ﴿ يا أيّها الّذين آمنوا لا تتّخذوا اليهود والنّصارى أولياء . بعضهم أولياء بعض . ومن يتولّهم منكم فإنّه منهم . إنّ الله لا يهدى القوم الظّالمين . فترى الّذين فى قلوبهم مرضٌ يسارعون فيهم يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة . فعسى الله أن يأتي بالفتح أو أمر من عنده فيصبحوا على ما أسرّوا فى أنفسهم نادمين ﴾ وقولُ الحقّ جلّ وعلا فى سورة آل عمران[٤] : ﴿ لا يتّخِذِ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين . ومن يفعل ذلك فليس من الله فى شيءٍ إلاّ أن يتّقوا منهم تقاة . ويحذّركم الله نفسه . وإلى الله المصير . قل إن تخفوا ما فى صدوركم أو تبدوه يعلمه الله . ويعلم ما فى السّماوات وما فى الأرض . والله على

---

(١) أشرنا إلى هذا المعنى فى أثناء دراستنا المتأمّلة بعنوان : تأمّلات فى سورة المائدة ص ٢٣١ و٣٣٩ .

(٢) أومأنا إلى هذا المعنى فى أثناء دراستنا للآية الكريمة الأربعين من سورة الأحزاب فى كتابنا : تأمّلات فى سورة الأحزاب ٣٥٨ فما بعدها .

(٣) الآية ٥١ و٥٢ .

(٤) الآيات ٢٨ ـ ٣٠ .

كلّ شيءٍ قدير . يوم تجد كلّ نفسٍ ما عملت من خيرٍ محضرًا وما عملت من سوءٍ تودّ لو أنّ بينها وبينه أمدًا بعيدًا . ويحذّركم الله نفسه . والله رءوفٌ بالعباد ﴾ وقول الحقّ جل وعلا فى سورة آل عمران[1] : ﴿ يا أيّها الّذين آمنوا لا تتّخذوا بطانةً من دونكم لا يألونكم خبالاً ودّوا ما عنتّم قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفى صدورهم أكبر . قد بيّنّا لكم الآيات إن كنتم تعقلون . ها أنتم أولاء تحبّونهم ولا يحبّونكم وتؤمنون بالكتاب كلّه وإذا لقوكم قالوا آمنّا وإذا خَلَوْا عضُّوا عليكم الأنامل من الغيظ . قل موتوا بغيظكم . إنّ الله عليمٌ بذات الصّدور . إن تمسسكم حسنةٌ تسؤهم وإن تصبكم سيّئةٌ يفرحوا بها . وإن تصبروا وتتّقوا لا يضرّكم كيدهم شيئًا . إنّ الله بما يعملون محيط ﴾ وقولُ الحقّ جلّ وعلا فى سورة الممتحَنة[2] : ﴿ لا ينهاكم الله عن الّذين لم يقاتلوكم فى الدّين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبرّوهم وتقسطوا إليهم . إنّ الله يحبّ المقسطين . إنّما ينهاكم الله عن الّذين قاتلوكم فى الدّين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولّوْهم . ومن يتولّهم فأولئك هم الظّالمون ﴾ .

ولمّا كان المصطفى ﷺ الأسوة الحسنة لنا نحن المسلمين فى الحرب والسّلم على السّواء ، وكان الجوّ جوّ قتال وكانت سورة الأنفال الكريمة بمثابة النّشيد الحربيّ الّذى يردّده المجاهدون فى سبيل الله تعالى فقد كان تحوّلٌ فى السّياق إلى توجيه الأسوة الحسنة ﷺ بطل الأبطال وسيّد الرّجال إلى تحريض الصّحابة رضوان الله تعالى عليهم وحثّهم على القتال وعلى الصّبر فالله تعالى مع الصّابرين وإلى هذه المعانى أومأت .

---

(١) الآيات ١١٨ - ١٢٠ .

(٢) الآية ٨ و٩ .

الآيتـــان رقـــم (٦٥ و٦٦)

قال تعالى : ﴿ يا أيّها النّبيّ حرّض المؤمنين على القتال . إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين . وإن يكن منكم مائةٌ يغلبوا ألفًا من الّذين كفروا بأنّهم قومٌ لا يفقهون . الآن خفّف الله عنكم وعلم أنّ فيكم ضعفًا . فإن يكن منكم مائةٌ صابرةٌ يغلبوا مائتين . وإن يكن منكم ألفٌ يغلبوا ألفين بإذن الله . والله مع الصابرين ﴾ .

تبدأ الآية الكريمة على غرار الآية الكريمة السّابقة بالقول : ﴿ يا أيّها النّبيّ ﴾ ونستطيع أن نفهم من هذا التّكرار صرامة الموقف وجِدّه لأنّ النّداء متعلّقٌ هنا بتحريض المصطفى ﷺ المؤمنين على القتال وبذل المهج والأرواح رخيصةً في سبيل الله تعالى ومن أجل جنّة عرضها السّماوات والأرض أعدّها الله تعالى للمتّقين . ومعروفٌ الهدف السّامي الّذي يقاتل من أجله المؤمن ويبذل روحه رخيصةً في سبيل الله تعالى . إنّ هذا الهدف هو إعلاء كلمة الله تعالى ونشر هذا الدّين الّذي رضيه الله تعالى لعباده وذلك بمنع أيّ قوّةٍ ظالمةٍ في الأرض من الصّدّ عن سبيل الله تعالى كي يختار النّاس بحرّيّةٍ مطلقةٍ الدّين الّذين يرغبون في اعتناقه وقد قال عزّ من قائل[1] : ﴿ لا إكراه في الدّين قد تبيّن الرّشد من الغيّ ﴾[2] إنّ منتهى ما يفعله المؤمنون المنتصرون أن يتيحوا لعباد الله تعالى هذه الحرّيّة المطلقة كي يختاروا الدّين الّذي تنشرح لاعتناقه صدورهم . إنّهم من ناحيةٍ يمنعون كلّ ظالم من الصّدّ عن سبيل الله تعالى وهم من ناحيةٍ أخرى لا يكرهون أحدًا على اعتناق دين الإسلام بأمر الله تعالى لأنّ الإيمان محلّه القلب ولا يعلم ما في القلب إلاّ الله تعالى وليس لمخلوقٍ سلطةٌ على أيّ قلبٍ بما في ذلك قلبه بين جوانحه . وقد جاء في هذا المعنى بهذه

---

(١) سورة البقرة ٢٥٦ .

(٢) درسنا الآية الكريمة في كتابنا : تأمّلات في سورة البقرة ١٥٣٩ فما بعدها . وتحدّثنا في المعنى ذاته في أثناء دراسة الآية الكريمة الرّابعة من سورة محمّد ﷺ في كتابنا : تأمّلات في سورة محمّد ﷺ ٥٩ فما بعدها .

السّورة الكريمة قول الحقّ جلّ وعلا[١] : ﴿ واعلموا أنّ الله يحول بين المرء وقلبه وأنّه إليه تُحْشَرون ﴾ .

ووراء ذلك ثمّة سؤالٌ فطريّ مفاده : من هو الإنسان العاقل الّذى يقف على حقيقة دين الإسلام دين الفطرة ولا يعتنقه على الفور ؟ لا يوجد ذلك الإنسان بدليل انتشار هذا الدّين بفضل الله تعالى انتشار النّار فى الهشيم حينما تتعاون بإذن الله تعالى الدّعوة الصّادقة إلى الله تعالى والقوّة الّتى تحمى تلك الدّعوة إلى دين الحقّ الّذى أكمله الله تعالى ورضيه لعباده وأتمّ به النّعمة عليهم . وإنّ من أكبر الأدلّة على ذلك انتشار هذا الدّين فى فجره فى لمح البصر من أقصى الشرق والشّمال ، إلى أقصى الغرب والجنوب . ولله الحمد والمنّة .

ومن البيّن أنّ الآيتين الكريمتين تتحدّثان فى بعض مفردات القوّة الّتى ينبغى لها أن تصاحب الدّعوة إلى الله تعالى بالحكمة والموعظة الحسنة على النّحو الّذى تبيّن .

إنّ الآية الكريمة الأولى فى القول : ﴿ يا أيّها النّبيّ حرّض المؤمنين على القتال ﴾ تأمر المصطفى ﷺ بطل الأبطال وسيّد الرّجال بأن يحرّض الصّحابة رضوان الله تعالى عليهم وقد ألّف الله تعالى بينهم وبأن يحثّهم على القتال وبذل الأرواح رخيصةً فى سبيل الله تعالى . والحقيقة أنّا لا نكاد نجد الجملة الأخرى الّتى تستطيع أن تشهد مشهد جملة : ﴿ حرّض ﴾ فى هذا الموقف . وحينما يكون ربّ العزّة قد جمع قلوب الصّحابة رضوان الله تعالى عليهم أجمعين على البرّ والتّقوى وألّف بينهم معنًى وحسًّا يكون معنى ذلك مبادرة الصّحابة رضوان الله تعالى عليهم إلى الاستجابة إلى الرّسول ﷺ وقد دعاهم عليه الصّلاة والسّلام إلى ما يحييهم بالجهاد فى سبيل الله تعالى . وإنّ هذه الاستجابة قد أُمِر الصّحابة رضوان الله تعالى عليهم أجمعين فى هذه السّورة الكريمة بالمبادرة إليها وذلك فى قول الحقّ جلّ وعلا[٢] : ﴿ يا أيّها الّذين آمنوا استجيبوا لله وللرّسول إذا دعاكم لما يحييكم ﴾ وقد عرفنا استجابة

---

١ و٢) سورة الأنفال ٢٤ .

الصّحابة رضوان الله تعالى عليهم أجمعين لهذا التّحريض من الرّسول الكريم بأمر ربّ العالمين . ومن البيّن أنّ القيادة المسلمة لها فى المصطفى ﷺ الأسوة الحسنة فهي مأمورةٌ بأن تحرّض المؤمنين على القتال وبأن تعدّ ما تستطيع من قوّة وبأن تمكّن المؤمنين من حسن استعمال تلك القوّة .

ويتحوّل الحديث إلى الصّحابة رضوان الله تعالى عليهم أشدّ النّاس إيمانًا وأقواهم يقينًا وأنقاهم قلوبًا وأسلمهم صدورًا وأصفاهم نفوسًا وذلك فى الخطاب الموجّه إليهم فى المقام الأوّل . ووراء ذلك يصحّ أن يتّجه إلى كلّ فئةٍ مؤمنةٍ تحرص على أن يكون لها بعون الله تعالى من نعوت أولئك المؤمنين المثالين أوفى نصيب . قال تعالى : ﴿ إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين . وإن يكن منكم مائةٌ يغلبوا ألفًا من الّذين كفروا بأنّهم قومٌ لا يفقهون ﴾ ومن البيّن أنّ هذا القول يرتبط به الآية الكريمة التّالية .

وفى الإمكان الإيماء فى هيئة نقاط إلى ما يمكن ملاحظته من خصائص فى هذا التّوجيه الرّبّانيّ للصّحابة ابتداءً ، للمؤمنين جميعًا انتهاءً .

١ — مع أنّ المعنى الّذى يهدف إليه القول : ﴿ إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين ﴾ هو أنّ المؤمن الواحد يستطيع بإذن الله تعالى أن يغلب عشرة من الّذين كفروا فمن البيّن أنّ السّياق لا يجىء فيه القول مَثَلاً : إن يكن منكم واحدٌ صابر يغلب عشرة ، مع أنّ هذا هو المقصود . ويصحّ — والله تعالى أعلم — أن يقال فى الحكمة من تجاوز الواحد والعشرة إلى العشرين والمائتين إنّها تومئ إلى مثل قول الحقّ جلّ وعلا فى سورة التّوبة[1] : ﴿ وقاتلوا المشركين كافّةً كما يقاتلونكم كافّةً واعلموا أنّ الله مع المتّقين ﴾ إنّ الحرب فى العادة لا يمارسها المرء وحده ولكن فى جماعة . وكأنّ فى الإيماء إلى العشرين من المجاهدين المسلمين تنبيهًا لهؤلاء المسلمين بأنّ الأنكى للعدوّ أن ينفر المسلمون ثباتٍ أو أن ينفروا جميعًا . قال عزّ من قائل[2] :

---

(١) الآية ٣٦ .

(٢) سورة النّساء ٧١ .

﴿ يا أيّها الّذين آمنوا خذوا حِذْركم فانفروا ثُباتٍ أو انفروا جميعًا ﴾ وثبات جمع ثُبة بمعنى جماعة بعد جماعة متسلّحين ، وفرقة بعد فرقة ، وسريّة بعد سريّة[1] .

٢ ـ عرفنا أنّ القول : ﴿ إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين ﴾ قد تجاوز فيه الرّقم : ﴿ عشرون ﴾ الرّقم « واحد » وتجاوز فيه الرّقم ﴿ مائتين ﴾ الرّقم : « عشرة » فلننظر إلى الأرقام المضمرة والظّاهرة فى الآيتين الكريمتين ، ولنضعها فى نسق ، ولنتأمّل ترتيبها الغريب ومعناها العجيب . واحد . عشرة . عشرون . مائتان . مائة . ألف . مائة . مائتان . ألف . ألفان . إنّا بحذف المكرّر نتبيّن وراء الواحد والعشرة المضمرين أنّ الأرقام تسير وفق هذا النّسق . عشرون . مائتان . مائة . ألف . ألفان . لقد كان ثمّة تحوّلٌ من العشرات إلى المئات إلى الألوف . وهذه هي الأرقام كاملة ٢٠ ، ٢٠٠ ، ١٠٠ ، ١٠٠٠ ، ١٠٠ ، ٢٠٠ ، ١٠٠٠ ، ٢٠٠٠ . وهي بعد حذف المكرّر ٢٠ ، ٢٠٠ ، ١٠٠ ، ١٠٠٠ ، ٢٠٠٠ . فإذا أضفنا الرّقمين المضمرين الواحد والعشرة ، استطعنا أن نبدأ الأرقام بمرحلة الآحاد تليها العشرات فالمئات فالألوف .

٣ ـ إذا كانت العين ترتاح لترتيب الأرقام مكتوبةً بالحروف أو الأرقام فإنّ هذا الارتياح يتجلّى بصورةٍ أوضح فى النّفس بسبب وصول معنى تلك الأرقام بيسرٍ وسهولةٍ إلى الذّهن . ما أسهل إدراك الذّهن أنّ المائتين حاصل ضرب العشرين فى عشرة . وليس بخافٍ على أحدٍ تعامَلَ مع الأطفال فى الحساب أنّ التّعامل مع العشرات وما فى حكمها من المئين والآلاف سهلٌ على الأطفال وميسور . وهذه الحقيقة تعنى سهولة إدراك كلّ إنسان أنّ مثل هذا القول : ﴿ إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين ﴾ يعنى أنّ المؤمن الواحد الصّابر يستطيع أن يغلب العشرة من الكافرين . وإنّ الشّىء ذاته يقال بشأن انتصار المائة من المؤمنين على الألف من الكافرين . فما أسهل إدراك كلّ إنسانٍ أنّ الألف حاصل ضرب المائة فى

---

(١) تفسير الطّبري ٥/١٠٤ و١٠٥ وتفسير ابن كثير ١/٥٢٤ .

بعضها عشر مرّات . واللّطيف فى الأمر أنّ الرّقم الثّانى فى كلٍّ من الموضعين يضاف له صفرٌ عن يمينه . إنّ الـ ٢٠ تصير ٢٠٠ وإنّ الـ ١٠٠ تصير ١٠٠٠ . وإنّ الشّىء ذاته يقال بشأن الآية الكريمة الأخرى . ما أسهل إدراك أنّ المائتين حاصل ضرب المائة فى نفسها مرّتين ، وأنّ الألفين حاصل ضرب الألف فى نفسه مرّتين .

٤ ـ إذا كانت الفجوة الواسعة بين الأرقام فى الآية الكريمة الأولى تعنى قلّة عدد المؤمنين فى فجر الإسلام من ناحية وكثرة الإيمان أو الصّبر من ناحيةٍ أخرى ، فإنّ الفجوة الضيّقة بين الأرقام فى الآية الكريمة الأخرى يصحّ أن تعنى كثرة عدد المؤمنين بعد ذلك من ناحية وقلّة الصّبر عن السّابقين وربّما الإيمان من ناحيةٍ أخرى . وربّما أومأ التّدرّج فى الأرقام فى الآيتين الكريمتين إلى مثل هذا المعنى وبالتّالى تناغم كلٌّ من الرّقمين مع أحوال أصحابه . وتفسير ذلك أنّه بالمقارنة بين حظّ الأرقام فى الآيتين الكريمتين من السّهولة واليسر ربّما تبيّن أنّ حظّ الأرقام فى الآية الكريمة الأخرى من اليسر والسّهولة هو الأكبر . إنّ ضرب الرّقم فى اثنين أسهل من ضرب الرّقم فى عشرة . إنّ الآية الكريمة الأولى الّتى تؤمئ إلى زيادة الإيمان والصّبر كان حظّها من الأرقام حاصل ضرب الرّقم فى عشرة . وإنّ الآية الكريمة الأخرى كان حظّها من الأرقام حاصل ضرب الرّقم فى اثنين . وهكذا تناغم ضرب الرّقم فى عشرة مع زيادة الإيمان والصّبر . وتناغم ضرب الرّقم فى اثنين مع الكثرة الّتى يبدو أنّ حظّها فى مجالى الإيمان والصّبر أقلّ من حظّ القلّة السّابقة . والله أعلم .

٥ ـ فى الآيتين الكريمتين العديد من مظاهر البلاغة بالحذف . ومن أهمّ وسائل الاستدلال على المحذوف ما يقابله من الوجهة المعنويّة من مذكور ولهذا يكون المعنى وافيًا فى القرآن الكريم بالعدد القليل من الألفاظ وواضحًا بسبب دلالة المذكور دائمًا على المحذوف . ونستطيع أن نتتبّع المحذوف فى الآيتين الكريمتين من المذكور . ويصحّ أن يتمّ ذلك عن طريق ذكر الكلام على صورته الممكنة قبل الحذف .

بما أنّ الحديث فى القول : ﴿ إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين ﴾ يعود إلى المؤمنين فى صدر الآية الكريمة وذلك فى القول : ﴿ يا أيّها النّبيّ حرّض المؤمنين على القتال ﴾ فكأنّ أصل الكلام قبل الحذف : إن يكن منكم أيّها المؤمنون عشرون صابرون ، أو إن يكن منكم عشرون مؤمنون صابرون يغلبوا مائتين كافرين أو من الّذين كفروا . ويفهم من القول : ﴿ عشرون صابرون ﴾ أنّ الكافرين غير صابرين أو أقلّ صبرًا . وبهذا يكون المؤمنون المقاتلون المجاهدون فى سبيل الله تعالى الصّابرون الغالبون بإذن الله تعالى فى جانب . ويكون الكافرون الّذين يقاتلون فى سبيل الطّاغوت غير الصّابرين المنهزمون بإذن الله تعالى فى جانبٍ آخر .

وبشأن القول : ﴿ وإن يكن منكم مائةٌ يغلبوا ألفًا من الّذين كفروا بأنّهم قومٌ لا يفقهون ﴾ يصحّ أن يكون أصل الكلام قبل الحذف : وإن يكن منكم أيّها المؤمنون مائةٌ صابرةٌ يغلبوا ألفًا غير صابرين بطبعهم من الّذين كفروا بسبب أنّ الكافرين قومٌ لا يفقهون وأنّ المؤمنين قومٌ يفقهون .

وبشأن القول : ﴿ فإن يكن منكم مائةٌ صابرةٌ يغلبوا مائتين ﴾ يصحّ أن يكون أصل الكلام قبل الحذف : فإن يكن منكم أيّها المؤمنون مائةٌ صابرةٌ يغلبوا مائتين غير صابرين بطبعهم من الكافرين .

وبشأن القول : ﴿ وإن يكن منكم ألفٌ يغلبوا ألفين بإذن الله ﴾ يصحّ أن يكون أصل الكلام قبل الحذف : وإن يكن منكم أيّها المؤمنون ألفٌ صابرٌ يغلبوا ألفين غير صابرين بطبعهم من الكافرين ويهزموهم بإذن الله تعالى .

٦ ــ بعد محاولة ذكر المحذوف فى الآيتين الكريمتين نستطيع أن نشير إلى الصّفات الّتى ينبغى توافرها فى المؤمنين المجاهدين فى سبيل الله تعالى .

يتّسم المؤمنون بالحرص على القتال والجهاد فى سبيل الله تعالى وبإعداد القوّة وحسن استعمالها وقت الحاجة وبالصّبر فى القتال وبالاستعانة بالله تعالى والتّوكّل عليه جلّ وعلا وبالفقه فى دين الله تعالى وبالعلم أنّ النّصر إنّما يتحقّق بإذن الله تعالى وحده

لا شريك له الّذى يكون دائمًا وأبدًا مع الصّابرين حين البأس وفى كلّ المواقف . وإنّ هذه النّعوت الحسنة فى حقّ المؤمنين يقابلها الصّفات السّيّئة فى حقّ الكافرين .

٧ ـ إنّ ثنائيّة المعانى فى القول : ﴿ إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين . وإن يكن منكم مائةٌ يغلبوا ألفًا من الّذين كفروا بأنّهم قومٌ لا يفقهون ﴾ يقابلها ثنائيّةٌ فى المعانى فى القول : ﴿ فإن يكن منكم مائةٌ صابرةٌ يغلبوا مائتين . وإن يكن منكم ألفٌ يغلبوا ألفين بإذن الله ﴾ وبين هذين النّوعين من ثنائيّة المعنى تأتى ثنائيّةٌ فى المعنى وذلك فى القول : ﴿ الآن خفّف الله عنكم وعلم أنّ فيكم ضعفًا ﴾ إنّ ما يتعلّق بالذّات العليّة يتقدّم وهو التّخفيف المسبَّب . وإنّ ما يتعلّق بالمخلوق يتأخّر وهو الضّعف السّبب .

٨ ـ ليس بخافٍ ظاهرة تلاؤم الأصوات بسبب التّجانس فى الصّيغ وربّما الحروف وذلك فيما يلى : ﴿ المؤمنين ﴾ ﴿ عشرون صابرون ﴾ ﴿ مائتين ﴾ ﴿ لا يفقهون ﴾ ﴿ مائتين ﴾ ﴿ ألفين ﴾ ﴿ الصّابرين ﴾ .

٩ ـ تعدّدت الإشارات الظّاهرة والمضمرة إلى الصّبر وخُتِم الحديث بالقول : ﴿ والله مع الصّابرين ﴾ وكلّ ذلك دليلٌ على أهمّيّة الصّبر وتغلغله فى كلّ العبادات ومنها الجهاد فى سبيل الله تعالى . وقد قال عزّ من قائل فى آخر آيات سورة آل عمران[1] : ﴿ يا أيّها الّذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتّقوا الله لعلّكم تفلحون ﴾ .

ما أجمل ذكر الصّبر وحذفه . واللّطيف فى الأمر أنّا بعد القول فى الآية الكريمة الأولى : ﴿ يا أيّها النّبيّ حرّض المؤمنين على القتال ﴾ بصدد ستّ جزئيّات كريمات يأتى الصّبر فى ثلاثٍ منها .

لقد جاء الصّبر وحُذِف فى هاتين الجزئيّتين الكريمتين ﴿ إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين . وإن يكن منكم مائةٌ يغلبوا ألفًا من الّذين كفروا بأنّهم قومٌ لا يفقهون ﴾ .

---

(١) الآية ٢٠٠ .

كما جاء الصّبر وحذف فى هاتين الجزئيّتين الكريمتين : ﴿ فإن يكن منكم مائةٌ صابرةٌ يغلبوا مائتين . وإن يكن منكم ألفٌ يغلبوا ألفين بإذن الله ﴾ .

ووراء ذلك فإنّ الصّبر إذا كان قد جاء فى القول : ﴿ والله مع الصّابرين ﴾ فإنّه لا يجىء فى القول : ﴿ الآن خفّف الله عنكم وعلم أنّ فيكم ضعفًا ﴾ .

١٠ ـ إنّ السّورة الكريمة فى الآيتين الكريمتين الخامسة عشرة والسّادسة عشرة إذا كانت قد نهت المؤمنين عن تولية الكافرين الأدبار فى ميدان المعركة والانسحاب من أمامهم إلاّ بسبب التّحرّف للقتال والكرّ بعد الفرّ وبسبب التّحيّز إلى فئةٍ مؤمنة أخرى لتكثير سوادها فإنّ العلماء فهموا من التّخفيف من الله تعالى وكون المؤمن يغلب بإذن الله تعالى اثنين من الكافرين أنّ الكافرين إذا كانوا أكثر من مثلي المؤمنين من حقّ المسلمين أن ينسحبوا من ميدان القتال . والله أعلم . جاء فى صحيح البخارى[١] : « عن ابن عبّاس رضي الله عنهما قال : لّما نزلت : ﴿ إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين ﴾ شقّ ذلك على المسلمين حين فُرِض عليهم ألاّ يفرّ واحدٌ من عشرة فجاء التّخفيف فقال : ﴿ الآن خفّف الله عنكم وعلم أنّ فيكم ضعفًا . فإن يكن منكم مائةٌ صابرةٌ يغلبوا مائتين ﴾ قال : فلمّا خفّف الله عنهم من العِدّة نقص من الصّبر بقدر ما خُفّفَ عنهم » عن ابن عبّاس قال : كان الرّجل لا ينبغى له أن يفرّ من عشرة ، ثمّ أنزل الله : ﴿ الآن خفّف الله عنكم ﴾ الآية ، فجعل الرّجل منهم لا ينبغى له أن يفرّ من اثنين[٢] .

---

(١) ٧٩/٦ وفتح البارى ٣١١/٨ حديق رقم ٤٦٥٢ .

(٢) فتح البارى ٣١٢/٨ .

[١١]

« قتل أسرى بدرٍ أَوْلى ، وإحلال الغنائم والفداء ،
وثواب الأوفياء وعذاب الخائنين »

الآيـــات (٦٧ ـ ٧١)

مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ
لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا
وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ
ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾ فَكُلُوا۟ مِمَّا
غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٩﴾
يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّمَن فِىٓ أَيْدِيكُم مِّنَ ٱلْأَسْرَىٰٓ إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ
فِى قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ
وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٠﴾ وَإِن يُرِيدُوا۟ خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا۟
ٱللَّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾

أيّد الله سبحانه وتعالى حبيبه المصطفى ﷺ والمؤمنين فى بدرٍ فهزموا المشركين الّذين يفوقونهم عدداً وعدّةً وقتلوا منهم سبعين وأسروا سبعين . ولمّا كان أسرى بدرٍ أولى الجماعات الّتى يأسرها المصطفى ﷺ والمؤمنون ولم يكن فيها وحي وبذلك هي مسألةٌ يصحّ أن تكون بالقياس إلى البشَر وفيهم المصطفى ﷺ داخلةً فى دائرة الاجتهاد والشّورى فقد اجتهد فيها المصطفى ﷺ واستشار . ومع أنّ ثمّة أكثر من رأي قد تمخّضت عنه الشّورى فإنّه يصحّ أن يكون الرّأي الّذى تبنّاه المصطفى ﷺ وهو أخذ الفداء هو الرّأي الغالب . خاصّةً وقد عرفنا أنّ الصّحابة رضوان الله تعالى عليهم بباعث الحاجة فى المقام الأوّل كانوا حريصين على العير وليس على النّفير ، هذا إلى اختلافهم فى الغنائم فأخذها جلّ وعلا منهم وردّها سبحانه وتعالى إلى حبيبه المصطفى ﷺ كي يحكم فيها بما أراه ربّه عزّ وجلّ . إنّ الرّأي الّذى أخذ به المصطفى ﷺ وهو أخذ الفداء من الأسرى عوتب عليه المصطفى ﷺ لأنّ الحكمة عند الله تعالى فى هذه الفترة المبكّرة من تاريخ الدّعوة الإسلامية أن يُقتَلَ الأسرى وأن تسيل دماؤهم حتّى تثخن وتجمد وتتوقّف عن الحركة ويتوقّف الكفّار عن السّعي بسبب قتل أساطينهم فلا تقوم للكفر بعد ذلك قائمة . ومن البيّن أنّ

ربّ العزّة جل وعلا وحده لا شريك له هو الّذى يبيّن لحبيبه ﷺ فى آية العتاب هنا أنّه عليه الصّلاة والسّلام قد تجاوز فى اجتهاده الفاضل عند الله تعالى إلى المفضول . وحبّذا لو أنّا فى أثناء الحديث عن آيات عتاب المصطفى ﷺ قد اكتفينا بالإيماء إلى تجاوز الفاضل عند الله تعالى إلى المفضول ، وبذلك نتحاشى الألفاظ غير اللّائقة فى حقّه ﷺ وغير المؤدّبة أو المهذّبة الّتى تورّط فيها بعضنا سهواً . واللّطيف فى الأمر أنّ المفضول الّذى فعله المصطفى ﷺ بأخذ الفداء من أسرى بدر قد أصبح عند الله تعالى فاضلاً بعد حين . لقد نصّت الآية الكريمة الرّابعة من سورة محمّد ﷺ الّتى نزلت بعد ذلك على المنّ والفداء بشأن الأسرى ، وسكتت عن الاسترقاق والقتل دليلاً على أنّ المنّ على الأسير أفضل الحالات الأربع لمعاملته يليها أخذ الفداء منه . وينصّ السّياق على أنّ الصّحابة رضوان الله تعالى عليهم أرادوا عرض الحياة الدّنيا ومتاعها الزّائل ، فى حين يريد ربّ العزّة لهم بقتل الأسرى ثواب الآخرة الجزيل . إنّه جلّ وعلا عزيزٌ فى ملكه حكيمٌ فى صنعه . ومن لطف الله تعالى ورحمته بحبيبه المصطفى ﷺ وبالمؤمنين أن بيّن على الفور فى كتابه العزيز أنّ ما قام به المصطفى ﷺ والمؤمنون من أخذ الفداء من الأسرى قد سبق فى علم الله تعالى الإذن به له عليه الصّلاة والسّلام وللأمّة المحمّديّة والإذن بأخذ الغنائم كذلك . إنّ هذا الإذن ممّا خصّ الله تعالى به حبيبه ﷺ ضمن مجموعةٍ من الخصائص دون سائر النّبيّين والمرسلين ، فمن حقّ المصطفى ﷺ والأمّة المحمّديّة أن تأكل من الغنائم ومن الفداء كذلك ، حلالاً غير حرام ، طيّباً غير خبيث . وفى كلّ الأحوال عليهم تقوى الله تعالى الغفور الرّحيم . وبشأن من شرح الله صدره للإسلام من أسرى بدر وأُخِذ منه الفداء وكان صادق الإيمان يُبَشّر بأنّ الله سبحانه وتعالى سوف يؤتيه خيراً ممّا أُخِذَ منه ، إذا لم يكن فى الأولى فى هيئة المال يكون فى الآخرة فى هيئة الثّواب . أمّا من بيّت النّيّة منهم على الغدر فإنّه يهدّد ويوعد بأنّه وهو الّذى خان الله تعالى من قبل بالكفر فأمكن منه فى بدرٍ سوف يمكن الله تعالى منه جزاء خيانته اللاّحقة . إنّ الله تعالى عليمٌ لا يخفى عليه شىءٌ فى الأرض ولا فى السّماء حكيمٌ فى كلّ شىء .

الآيــة رقــم (٦٧)

قال تعالى : ﴿ ما كان لنبيٍّ أن يكون له أسرى حتّى يُثْخِنَ فى الأرض . تريدون عَرَض الدّنيا والله يريد الآخرة . والله عزيزٌ حكيم ﴾

نودّ أن نقف ابتداءً عند جملة : ﴿ يثخن ﴾ من أجل معرفة أدوارها البليغة فى الآية الكريمة . الثّاء والخاء والنّون يدلّ على رزانة الشىء فى ثِقَل . تقول : ثَخُنَ الشّىءُ ثَخانة . والرّجل الحليم الرّزين ثخين . والثّوب المكتنز اللُّحمة والسَّدَى من جَوْدة نسجه ثخين[1] وثَخُن الشّىء فهو ثخينٌ إذا غلُظ فلم يسل ولم يستمرّ فى ذهابه[2] وكأنّ من معانى القول : ﴿ حتّى يثخن فى الأرض ﴾ حتّى يصير دم أعداء الله تعالى ثخيناً غليظاً لا يسيل ولا يستمرّ فى ذهابه . ولمّا كانت ثخانة الدّم لا تكون إلاّ بعد تدفّقه ابتداءً كان من معانى جملة : ﴿ حتّى يثخن فى الأرض ﴾ المبالغة فى قتل أعداء الله تعالى وجرحهم فى ميدان القتال ممّا ينجم عن كلٍ منهما ثخانة الدّم وغلظه وجموده . ولمّا كانت ثخانة الدّم ثمرة المبالغة فى القتل والجرح أفادت جملة : ﴿ يثخن ﴾ المبالغة بشأن المعنى الّذى تستعمل فيه مطلقا . قال تعالى : ﴿ حتّى يثخن فى الأرض ﴾ يقول : حتّى يبالغ فى قتل المشركين فيها ويقهرهم غلبةً وقسراً . يقال منه : أثخن فلانٌ فى هذا الأمر إذا بالغ فيه . وحكى : أثخنته معرفة ، بمعنى قتلته معرفة[3] وبذلك يكون من متعلقات الإثخان الثّبات بعد حركة ، والجمود بعد تدفّق ، والثّقَل بعد خفّة ، والموت بعد حياة .

ومن البيّن أنّ الآية الكريمة فى عتاب المصطفى ﷺ الّذى أخذ الفداء من أسرى بدرٍ فى هذه الفترة المبكّرة من تاريخ الدّعوة الإسلاميّة وكان الأَوْلى عند الله تعالى أن يُقتَل الأسرى فى هذه المعركة الأُولى الحاسمة بين جيش الرّحمن وجيش الشّيطان

---

(١) معجم مقاييس اللّغة « ثخن » ٣٧٢/١ . .

(٢) مفردات الرّاغب الأصفهانى : « ثخن » ٧٩ . (٣) تفسير الطّبرى ٣٠/١٠ .

كيلا تقوم للكفر بعد ذلك قائمة بقتل صناديدهم ، وكيلا يستطيع كفّار مكّة تعبئة جيشهم سريعاً والنّيل من المسلمين فى أُحُد وقتل سبعين منهم بإذن الله تعالى . إنّ هذا يقتضينا الوقوف على سبب النّزول .

روى الإمام أحمد والإمام مسلم عن عمر بن الخطاب قال : لمّا كان يوم بدرٍ والتقوا فهزم الله المشركين وقُتِلَ منهم سبعون رجلاً وأسر منهم سبعون رجلاً ، استشار رسول الله ﷺ أبا بكر وعمر وعليّا . فقال أبو بكر : يا نبيّ الله ، هؤلاء بنو العمّ والعشيرة ولإخوان ، وإنّى أرى أن تأخذ الفدية ، فيكونَ ما أخذنا منهم قوّةً لنا على الكفّار . وعسى الله أن يهديهم للإسلام فيكونوا لنا عضداً . فقال رسول الله ﷺ : ما ترى يا ابن الخطّاب ؟ قال : قلت : والله ما أرى ما رأى أبو بكر ولكن أرى أن تمكّننى من فلان ، قريبٍ لعمر ، فأضرب عنقه ، وتمكن عليّاً من عَقِيل فيضرب عنقه ، وتمكّن حمزة من فلان ، أخيه فيضرب عنقه . حتّى يعلم الله عزّ وجلّ أنّه ليس فى قلوبنا هَوادة للمشركين . هؤلاء صناديدهم وأئمّتهم وقادتهم فَهَوِي رسول الله ﷺ ما قال أبو بكر ولم يهو ما قلت فأخذ منهم الفداء . فلمّا كان من الغد قال عمر : غدوت إلى النّبيّ ﷺ فإذا هو قاعدٌ وأبو بكر الصّدّيق وإذا هما يبكيان فقلت : يا رسول الله ، أخبرنى ماذا يبكيك أنت وصاحبك ؟ فإن وجدت بكاءً بكيت ، وإن لم أجد بكاءً تباكيت لبكائكما . فقال النّبيّ ﷺ : أبكى للّذى عَرَض عليّ أصحابُك من الفداء . لقد عُرِض عليّ عذابكم أدنى من هذه الشّجرة ، لشجرةٍ قريبة ، وأنزل الله عزّ وجلّ : ﴿ ما كان لنّبيٍّ أن يكون له أسرى حتّى يثخن فى الأرض ﴾ إلى قوله : ﴿ لولا كتابٌ من الله سبق لمسّكم فيما أخذتم ﴾ من الفداء : ﴿ عذابٌ عظيم ﴾[1] .

ومعنى الآية الكريمة باختصار : ما كان ينبغى لنبيّ أن يكون له فى فجر دعوته أسرى من أعداء الله تعالى حتّى يثخن فى الأرض ويبالغ فى قتلهم وحتّى يكون دمهم ثخيناً جامداً وحتّى تثخنوهم وتبالغوا فى قتلهم وجرحهم فلا تقوم لهم قائمة ولا يستطيعون

---

(١) أسباب النّزول للواحدى النّيسابورى ٢٧٥ و٢٧٦ وانظر تفسير ابن كثير ٢/٣٢٥ .

مواصلة القتال أو استئنافه . إنّكم يا أصحاب محمّد ﷺ تريدون بقبولكم الفداء عرض الدّنيا ومتاعها الزّائل ومالها الرّخيص ، والله تعالى يريد لكم بقتل الأسرى ثواب الآخرة بعد عزّ الدّنيا . والله سبحانه وتعالى عزيزٌ في ملكه حكيمٌ في صنعه . ومن البيّن علاقة الآية الكريمة الوثيقة بالآية الكريمة التّالية بل بالآيتين الكريمتين التّاليتين وهما :

الآيتان رقم (٦٨ و٦٩)

قال تعالى : ﴿ لولا كتابٌ من الله سبق لمسّكم فيما أخذتم عذابٌ عظيم . فكلوا ممّا غنمتم حلالاً طيباً واتّقوا الله . إنّ الله غفورٌ رحيم ﴾

ومعنى الآية الكريمة الأولى باختصار : « لولا قضاءٌ من الله سبق لكم أهل بدرٍ في اللّوح المحفوظ بأنّ الله محلٌّ لكم الغنيمة وأنّ الله قضى فيما قضى أنّه لا يضلّ قوماً إذ هداهم حتّى يبيّن لهم ما يتّقون ، وأنّه لا يعذّب أحداً شهد المشهد الّذي شهدتموه ببدرٍ مع رسول الله ﷺ ناصراً دين الله لنالكم من الله بأخذكم الغنيمة والفداء عذابٌ عظيم »[1] .

ومعنى الآية الكريمة الأخرى باختصار : « فكلوا أيّها المؤمنون ممّا غنمتم من أموال المشركين حلالاً بإحلاله لكم ، طيّباً ، واتّقوا الله ، يقول وخافوا الله أن تعودوا أن تفعلوا في دينكم شيئاً بعد هذه من قبل أن يعهد فيه إليكم كما فعلتم في أخذ الفداء وأكل الغنيمة وأخذتموهما من قبل أن يحلاّ لكم . . . . إنّ الله غفورٌ لذنوب أهل الإيمان من عباده ، رحيمٌ بهم أن يعاقبهم بعد توبتهم منها »[2] .

ويفهم من الآيات الكريمات الثلاث في نسق أنّنا من ناحيةٍ بصدد عتابٍ للمصطفى ﷺ وللمؤمنين على أخذ الفداء ، وأنّنا من ناحيةٍ أخرى بصدد إذنٍ للمصطفى ﷺ وللمؤمنين بعد ذلك بأخذ الفداء وأكل الغنيمة كذلك ، فكأنّنا بصدد نسخٍ في مجال الأحكام .

إنّ كلّ ذلك معناه أنّنا الآن بحاجةٍ إلى الحديث في الآيات الكريمات الثّلاث من زاوية العتاب والنّسخ . والله وليّ التّوفيق .

---

(١) تفسير الطّبري ١٠/٣٢ .

(٢) تفسير الطّبري ١٠/٣٤ .

الآيات الكريمات ذوات علاقةٍ بهذه الآية الكريمة من سورة محمّد[١] ﷺ . قال تعالى : ﴿ فإذا لقيتم الّذين كفروا فضرب الرّقاب حتّى إذا أثخنتموهم فشدّوا الوثاق فإمّا مَنّاً بعد وإمّا فداءً حتّى تضع الحرب أوزارها . ذلك ولو يشاء الله لانتصر منهم ولكن ليبلو بعضكم ببعض . والّذين قُتِلوا فى سبيل الله فلن يضلّ أعمالهم ﴾ .

ومن البّين أنّ هذه الآية الكريمة من سورة محمّد ﷺ تتحدّث عن معاملة الأسرى فى الإسلام ، والمعروف أنّها الآية الكريمة الوحيدة فى القرآن الكريم الّتى تتحدّث فى معاملة الأسرى فى الإسلام[٢] .

وبشأن سورة الأنفال الّتى فيها عتاب المصطفى ﷺ والمؤمنين على أخذ الفداء من أسرى المشركين وعدم قتلهم هي نزلت إثر غزوة بدرٍ الّتى كانت يوم الجمعة السّابع عشر من شهر رمضان المبارك فى السّنة الثّانية من الهجرة[٣] فقد نزل بالمدينة المنوّرة بعد الهجرة سورة البقرة ثمّ سورة الأنفال[٤] .

وبشأن سورة محمّد ﷺ الّتى فيها الإذن من الله تعالى بأن يأخذ المصطفى ﷺ والمؤمنون من الأسرى الفداء من بين حالين اثنتين نصّت عليهما الآية الكريمة تمام أربع حالات يصحّ معاملة الإمام أسرى الأعداء بها هي نزلت بعد غزوة بدر وقبل غزوة الأحزاب الّتى كانت فى السّنة الخامسة من الهجرة وفق الرّأى الرّاجح[٥] وبهذا يتبيّن أنّ أخذ الفداء الّذى كان مفضولاً فى غزوة بدر بل فى حكم المنهيّ عنه أصبح بعد ذلك فاضلاً ويأتى فى التّرتيب إثر المنّ على الأسير بدون مقابل ، والمنّ أفضل أربع الحالات الّتى يعامَلُ بها الأسرى فى الإسلام . وإنّ هذا القول الموجز فى حاجةٍ إلى شيءٍ من بسط القول .

---

(١) الآية ٤ . (٢) درسنا الآية الكريمة فى كتابنا : تأمّلات فى سورة محمّد ﷺ ٥٩ ـ ١٠١ وفى دراسة بعنوان : معاملة الأسرى فى الإسلام نشرت فى العدد الرّابع من رسالة المسجد السّنة الرّابعة ربيع الأوّل ١٤٠١ هـ يناير ١٩٨١ م .

(٣) تفسير ابن كثير ٣١٣/٢ . (٤) انظر الإتقان ٤٣/١ .

(٥) تأمّلات فى سورة محمّد ﷺ ١٧ وتأمّلات فى سورة الأحزاب ٢١ للمؤلّف والإتقان ٤٣/١ .

حينما ننظر إلى هذه الآية الكريمة من سورة الأنفال : ﴿ ما كان لنبيّ أن يكون له أسرى حتّى يثخن فى الأرض . تريدون عرض الدّنيا والله يريد الآخرة . والله عزيزٌ حكيم ﴾ نتبيّن أنّ ربّ العزّة الّذى نصر وحده لا شريك له المؤمنين القلّة الأذلّة فى بدرٍ يبيّن فى محكم كتابه فى معرض العتاب للمصطفى ﷺ أنّه ما كان ينبغى لنبيّ نصره الله تعالى على أعدائه فى مقتبل دعوته أن يكون له أسرى حتّى يبالغ فى قتلهم. وواضحٌ أنّ الآية الكريمة لا يجىء فيها القول : ما كان لك أيّها النّبيّ أن يكون لك أسرى إلخ . إنّما الّذى يجىء فى الآية الكريمة حكمٌ من الله تعالى يشمل كلّ النّبيّين وفيهم خاتمهم وأشرفهم محمّد بن عبد الله ﷺ . وبالإضافة إلى شمول الحديث جميع النّبيّين وفيهم محمّد بن عبد الله ﷺ نتبيّن أنّ الحديث ينصّ على أهمّ إحدى صفتين للمصطفى ﷺ وسائر المرسلين عليهم جميعاً صلوات الله تعالى وسلامه . وهذه الصّفة هي صفة النّبوّة . وبذلك يكون القول هنا : ﴿ما كان لنبيّ﴾ غير بعيدٍ من القول قبل آيةٍ واحدةٍ فقط خطاباً للمصطفى ﷺ مرّتين اثنتين فى آيتين كريمتين : ﴿ يا أيّها النّبيّ ﴾ وبذلك لطف عتاب المصطفى ﷺ لا ندراجه عليه الصّلاة والسّلام فى سائر النّبيّين عليهم جميعًا صلوات الله تعالى وسلامه ، ولأنّ الإشارة إلى المصطفين الأخيار تضمّنت التّنويه بنعمةٍ كبرى هي نعمة النّبوّة ، وهي محض فضلٍ من الله تعالى على المصطفَيْن من عباده جلّ وعلا الأخيار .

وإذا كان صدر الآية الكريمة يتحدّث عن المصطفين الأخيار صلوات الله تعالى وسلامه عليهم أجمعين فإنّ الشّقّ الثّاني منها يتحدّث إلى المؤمنين فى أسلوب الخطاب : ﴿ تريدون عرض الدّنيا والله يريد الآخرة ﴾ إنّ العتاب الصّريح يتّجه إلى المؤمنين الّذين يقال لهم إنّكم بحرصكم على الفداء وأخذكم له تريدون عرض الحياة الدّنيا وما عرض للمرء منها من مال ومتاع[1] والله سبحانه وتعالى يريد بقتلكم إيّاهم وإثخانكم فى الأرض ثواب الآخرة فى الجنّة ونعيمها المقيم . إنّ الله سبحانه وتعالى الّذى قضى بقتل الأسرى فى فجر الدّعوة هو العزيز فى ملكه ، الحكيم فى

---

(١) تفسير الطّبرى ١٠/٣٠ .

صنعه . وتتجلّى العزّة فى تأييد الله تعالى نبيّه ﷺ ونصر المؤمنين القلّة الأذلّة وفى الأمر بقتل أسرى الكافرين . وتتجلّى الحكمة فيما حلّ بالمسلمين من هزيمةٍ فى أحدٍ واستشهاد سبعين من الصّحابة رضوان الله تعالى عليهم أجمعين . وكلّ ذلك تمّ بإذنه جلّ وعلا . روى التّرمذيّ والنّسائيّ وابن حبّان فى صحيحه عن عليّ رضي الله عنه قال : جاء جبريل إلى النّبيّ ﷺ يوم بدرٍ فقال : خيّر أصحابك فى الأسارى إن شاءوا الفدا وإن شاءوا القتل على أن يقتل عاماً مقبلاً منهم مثلهم . قالوا الفداء ويقتل منّا . وعلّق ابن كثير على الحديث بالقول وهذا حديثٌ غريبٌ جدّاً[١] .

ويُفْهَمُ من آية العتاب هذه فى الأسرى أنّ أخذ الفداء من الأسرى فى هذه الفترة المبكّرة من فجر الدّعوة الإسلاميّة مفضولٌ بالقياس إلى الفاضل وهو قتل الأسرى .

فإذا تحوّلنا إلى الآية الكريمة الرّابعة من سورة محمّد ﷺ وجدنا فيها القول : ﴿ فإذا لقيتم الّذين كفروا فضرب الرّقاب حتّى إذا أثخنتموهم فشدّوا الوثاق فإمّا مَناً بَعْدُ وإمّا فداءً حتّى تضع الحرب أوزارها ﴾ والمعنى : فإذا لقيتم أيّها المؤمنون فى ميدان المعركة الكافرين فاضربوا الرّقاب بالسّيوف ضرباً حتّى إذا أثخنتموهم وأوهنتموهم وأثقلتموهم وأذهبتم عنهم النّهوض وغلبتموهم وقهرتموهم[٢] فشدّوا الوثاق . والوثاق بالفتح والكسر اسم ما يوثق به[٣] وانتصبا منّاً وفداءً بإضمار فعلٍ يقدّر من لفظهما أي فإمّا تمنّون منّاً وإمّا تفدون فداءً[٤] حتّى تضع الحرب أوزارها وأحمالها وأثقالها وآلاتها[٥] .

ومن البيّن أنّ الآية الكريمة تتحدّث عن المنّ والفداء ، وتسكت عن حالين أخريين يعامل وفقهما الأسير وهما القتل والاسترقاق . وفى عدم ذكرهما فى الآية الكريمة دليلٌ على أنّهما متأخّرتان منزلة . وفى تقديم المنّ على الفداء دليلٌ على أنّ المنّ على الأسير دون مقابل هو أفضل الحالات الأربع يليها أخذ الفداء منه . والمعروف أنّ

---

(١) تفسير ابن كثير ٣٢٦/٢ .
(٢) انظر اللّسان : « ثخن » .
(٣) الكشّاف ١٢٧/٣ والبحر المحيط ٧٤/٨ .
(٤) البحر المحيط ٧٤/٨ والكشّاف ١٢٧/٣ وتفسير القرطبي ٦٠٤٦ .
(٥) انظر ــ مثلاً ــ مفردات الرّاغب الأصفهانى : « وزر » ٥٢١ وتفسير القرطبى ٦٠٤٩ .

المصطفى ﷺ فعل كلاً من الحالات الأربع . والمعروف أنّ من حقّ الإمام أن يفعل أيّاً من الحالات الأربع يرى فيها المصلحة ، وذلك فى ضوء نوع فعل الأعداء بأسرانا . إنّهم إن منّوا على أسرانا منّا على أسراهم ، وإن أخذوا الفداء أخذنا ، وإن قتلوا أسرانا قتلنا ، وإن استرقّوا أسرانا استرققنا . والمعروف أنّه لا رقّ فى الإسلام وأنّ الإسلام شرّع للعتق و لم يشرّع الرّقّ . لقد كان الاسترقاق آنذاك قانوناً عالميّاً و لم يفكر أحدٌ فى رفع الرّقيق من مستوى الأشياء فجاء الإسلام وشرّع العتق . وإنّما لم يحرّم الإسلام الرّقّ تحريمه للخمر والميسر وما إليهما لأنّ الخصوم كانوا دائماً وأبداً يسترقّون أسرى المسلمين . وحينما لم يعد الخصوم يسترقّون أسرانا لم يعد فى ديار الإسلام مسترقٌّ واحد . وبذلك يتّضح أنّ الخصوم هم المسئولون عن فتح هذا الباب إن هم ـ لا سمح الله ـ استرقّوا أسرى المسلمين . يقول ابن كثير[1] : « وقد استمرّ الحكم فى الأسرى عند جمهور العلماء أنّ الإمام مخيّرٌ فيهم ، إن شاء قتل كما فعل ببنى قريظة . وإن شاء فادى بمالٍ كما فعل بأسرى بدر ، أو بمن أسر من المسلمين كما فعل رسول الله ﷺ فى تلك الجارية وابنتها اللّتين كانتا فى سبي سلمة بن الأكوع حيث ردّهما وأخذ فى مقابلتهما من المسلمين الّذين كانوا عند المشركين . وإن شاء استرقّ من أسر . هذا مذهب الإمام الشّافعيّ وطائفة من العلماء » .

وإنّ من ألطف ما يجمل لفت الانتباه إليه مجيء الفاء العاطفة فى القول : ﴿ فإمّا منّاً بعد وإمّا فداءً ﴾[2] والمعروف أنّ الفاء تدلّ على التّرتيب مع التّعقيب . وكأنّ المنّ على الأسير يصحّ أن يكون بعد أسره مباشرة وكذلك أخذ الفداء .

إنّ كلّ هذه الأمور الّتى أومأنا إليها قويّة الدّلالة فى كون أخذ الفداء من الأسير فى هذه المرحلة من تاريخ الدّعوة الإسلاميّة أولى من قتله . وبذلك يكون المنّ على الأسير والفداء يتقدّمان الآن على القتل الّذى كان هو الأَوْلى والأحرى فى غزوة بدر . وبذلك يتبيّن أنّ قتل الأسرى فى غزوة بدر الّذى كان فاضلاً بالقياس إلى

---

(١) تفسير ابن كثير ٣٢٦/٢ .

(٢) الجدول فى إعراب القرآن وصرفه ٣٧/١٢ .

أخذ الفداء ، أصبح هو المفضول بعد ذلك ، فى حين أصبح المفضول وهو أخذ الفداء فاضلاً .

ممّا سبق يتبيّن أنّ المصطفى ﷺ حينما أخذ من الأسرى الفداء فى بدرٍ قد تجاوز الفاضل عند الله تعالى إلى المفضول . ومن فضل الله تعالى على المصطفى ﷺ وعلى المؤمنين أن يصبح المفضول وهو أخذ الفداء فاضلاً ويصبح الفاضل وهو القتل مفضولاً ، لا معقّب لحكمه عزّ وجلّ ولا رادّ لقضائه جلّ وعلا . إنّ آية سورة محمّد ﷺ قرّرت أنّ المنّ على الأسير أفضل الحالات الأربع الّتى يصحّ معاملته بها يلى ذلك أخذ الفداء . وإنّ آية سورة محمّد ﷺ ذات علاقةٍ بهذه الآية الكريمة من سورة الأنفال . قال تعالى : ﴿ لولا كتابٌ من الله سبق لمسّكم فيما أخذتم عذابٌ عظيم ﴾ والمعنى : لولا كتابٌ من الله تعالى سبق فى اللّوح المحفوظ[١] وقضاءٌ من الله تعالى مضى فى أمّ الكتاب الأوّل أنّ المغانم والأسارى حلالٌ لكم[٢] لمسّكم فيما أخذتم من الفداء عذابٌ عظيمٌ وأذىً شديد . جاء فى الصّحيحين عن جابر بن عبد الله رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : أعطيت خمسًا لم يعطهنّ أحدٌ من الأنبياء قبلى ، نصرت بالرّعب مسيرة شهر ، وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً ، وأحلّت لي الغنائم ولم تحلّ لأحدٍ قبلى ، وأعطيت الشّفاعة ، وكان النّبيّ يبعث إلى قومه وبعثت إلى النّاس عامّة[٣] وعن أبى هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : لم تحلّ الغنائم لسود الرّءوس غيرنا[٤] ولهذا جاء فى سورة الأنفال قول الحقّ جلّ وعلا : ﴿ فكلوا ممّا غنمتم حلالاً طيّباً واتّقوا الله . إنّ الله غفورٌ رحيم ﴾ وبشأن الأمم السّابقة كان النّبيّ ﷺ وأصحابه إذا غنموا الغنيمة جمعوها ونزلت نارٌ من السّماء فأكلتها[٥] .

---

(١) تفسير الطّبرى ٣٢/١٠ .
(٢) تفسير ابن كثير ٣٢٦/٢ وانظر السّيرة النّبويّة ٦٧٦/٢ .
(٣) تفسير ابن كثير ٣٢٦/٢ وانظر تفسير الطّبرى ٣٤/١٠ .
(٤) تفسير ابن كثير ٣٢٦/٢ وتفسير الطّبرى ٣٢/١٠ وتفسير القرطبى ٢٨٨٩ .
(٥) تفسير القرطبى ٢٨٨٩ وتفسير الطّبرى ٣٢/١٠ .

ممّا سبق يتبيّن أنّ عتاب المصطفى ﷺ فى القول : ﴿ ما كان لنبّي أن يكون له أسرى حتّى يثخن فى الأرض ﴾ إنّما هو عتابٌ من ربّ العزّة والجلال لحبيبه المصطفى ﷺ لأنّ المصطفى ﷺ فى اجتهاده تجاوز الفاضل عند الله تعالى وهو قتل الأسرى فى تلك المعركة الأولى الحاسمة إلى المفضول . إنّ الّذى يعاتب المصطفى ﷺ هو ربّ العزّة والجلال وحده لا شريك له بسبب هذا التّجاوز للفاضل إلى المفضول . ولا ننسى أنّ الّذى آثره المصطفى ﷺ وهو أخذ الفداء قد أصبح بعد ذلك هو الفاضل عند الله تعالى . إنّ المصطفى ﷺ عبد الله تعالى ورسوله الّذى لا يعلم إلاّ ما علّمه الله تعالى تجاوز فى اجتهاده الفاضل إلى المفضول . ويلاحظ بشأن آيات عتاب المصطفى ﷺ أنّه عليه الصّلاة والسّلام فى اجتهاده يتجاوز الفاضل عند الله تعالى وليس بالقياس إلى المخلوقين . إنّ هذا التّجاوز وحده سبب العتاب له ﷺ من ربّ العباد جلّ وعلا . وإنّما أتعمّد الوقوف مليّاً فى العادة عند مثل هذه المواقف لأنّ الملاحظ أنّ بعضنا نحن المفسّرين والمتأمّلين لآي الذّكر الحكيم يتورّط فى استعمال بعض الألفاظ غير الصّحيحة وغير الدّقيقة فى حقّه عليه الصّلاة والسّلام الّذى تجاوز فى اجتهاده الفاضل عند الله تعالى وليس عند عباد الله تعالى . وإنّ الدّليل على أنّ منتهى ما تجاوزه المصطفى ﷺ وفاته فى اجتهاده عليه الصّلاة والسّلام ينحصر فى التّوقيت أنّ ما ظنّه عليه الصّلاة والسّلام فاضلاً بشأن أسرى بدرٍ أصبح بعد بضع سنواتٍ هو الفاضل فى التّشريع الإسلاميّ ويأتى بعد المنّ أفضل الحالات الأربع فى معاملة الأسير . وهذه الحالات الأربع جاء ذكر اثنتين منهما فى الآية الكريمة الرّابعة من سورة محمّد ﷺ وطبّقهما عليه الصّلاة والسّلام وهما المنّ والفداء . كما طبّق عليه الصّلاة والسّلام حالين أخريين ثبتا بالسّنّة المطهرّة وهما القتل والاسترقاق .

ولعلّنا نحن المسلمين ولعلّ كلّ المنصفين فى كلامهم عن آيات عتاب المصطفى ﷺ يتجاوزون بعض الألفاظ غير المهذّبة والعبارات غير المؤدّبة فى حقّه ﷺ الّذى لا ينطق عن الهوى والّذى يجتهد ويصحّ أن يتجاوز الفاضل عند الله تعالى إلى

المفضول فيعاتبه البرّ الرّءوف الرّحيم فى مثل هذا القول الّذى يتصدّره العفو من ربّ العزّة والجلال فى هذه الآية الكريمة الثّالثة والأربعين من سورة التّوبة : ﴿ عفا الله عنك لم أذنت لهم حتّى يتبيّن لك الّذين صدقوا وتعلم الكاذبين ﴾ ولا ننسى أنّ المصطفى ﷺ هو الّذى غفر له ربّه جلّ وعلا ما تقدّم من ذنبه وما تأخّر . قال عزّ من قائل[1] : ﴿ إنّا فتحنا لك فتحًا مبينًا . ليغفر لك الله ما تقدّم من ذنبك وما تأخّر ويتمّ نعمته عليك ويهديك صراطاً مستقيماً . وينصرك الله نصراً عزيزاً ﴾

نسأل الله تعالى أن يلهمنا حسن الأدب وأن يوفّقنا جميعاً لكلّ ما يحبّ ويرضى إنّه جلّ وعلا جوّادٌ كريم.

ومع أنّ محور الآيات الكريمات معاملة الأسرى فإنّ فضل الله تعالى الّذى ليس له حدود يتجاوز معاملة الأسرى وإباحة أخذ الفداء إلى إباحة أخذ الغنائم وإلى الأمر أمر إباحة بأكلها إن كانت ممّا يؤكل لأنّها من الحلال الطّيّب لهذه الأمّة المسلمة لله ربّ العالمين . وإنّ فى إباحة أكل الغنيمة إباحةً لكلّ ما دون ذلك بطريق الأحرى والأولى لأنّه يقلّ منزلةً عن منزلة الطّعام وما فى حكمه من شراب ، والله أعلم .

ولمّا كان بعض الأسرى الّذين أخذ المؤمنون الفداء منهم قد هداهم الله تعالى للإسلام وأعلنوا إسلامهم فإنّ السّياق يتحوّل إليهم فإلى .

الآيـــة رقـــم (٧٠)

قال تعالى : ﴿ يا أيّها النّبيّ قل لمن فى أيديكم من الأسرى إن يعلم الله فى قلوبهم خيراً يؤتكم خيراً ممّا أخذ منكم ويغفر لكم . والله غفورٌ رحيم ﴾

جاء عن سبب النّزول فى صحيح البخارى من حديث موسى بن عقبة قال ابن شهاب حدّثنا أنس بن مالك أنّ رجالاً من الأنصار قالوا يا رسول الله : ائذن لنا فلنترك لابن أختنا عبّاس فداءه . قال : لا والله لا تذرون منه درهما . وقال يونس ابن بكير عن محمّد بن إسحاق عن يزيد بن رومان عن عروة عن الزّهريّ عن جماعة

---

(١) سورة الفتح ١ - ٣ .

سمّاهم قالوا : بعثت قريش إلى رسول الله ﷺ فى فداء أسراهم ففدى كلّ قوم أسيرهم بما رضوا . وقال العبّاس : يا رسول الله قد كنت مسلماً فقال رسول الله ﷺ : الله أعلم بإسلامك فإن يكن كما تقول فإنّ الله يجزيك . وأمّا ظاهرك فقد كان علينا فافتد نفسك وابنى أخيك نوفل بن الحارث بن عبد المطّلب وعقيل بن أبى طالب بن عبد الله وحليفك عتبة بن عمرو أخى بنى الحارث بن فهر . قال : ما ذاك عندى يا رسول الله . قال : فأين المال الّذى دفنته أنت وأمّ الفضل ؟ قلت لها : إن أصبت فى سفرى هذا فهذا المال الّذى دفنته لبنيّ الفضل وعبد الله وقثم . قال : والله يا رسول الله إنّى لأعلم أنّك رسول الله . إنّ هذا لشيءٌ ما علمه أحدٌ غيرى وغير أمّ الفضل . فاحسب لى يا رسول الله ما أصبتم منّى عشرين أوقيّة من مالٍ كان معى . فقال رسول الله ﷺ : لا ، ذاك شيءٌ أعطانا الله تعالى منك . ففدى نفسه وابني أخويه وحليفه . فأنزل الله عزّ وجلّ : ﴿ يا أيّها النّبيّ قل لمن فى أيديكم من الأسرى إن يعلم الله فى قلوبكم خيراً يؤتكم خيراً ممّا أُخِذَ منكم ويغفر لكم . والله غفورٌ رحيم ﴾ قال العبّاس : فأعطاني الله مكان العشرين الأوقيّة فى الإسلام عشرين عبداً كلّهم فى يده مالٌ يضرب به مع ما أرجو من مغفرة الله عزّ وجلّ[١] وعن ابن عبّاس قال : قال العبّاس : فِيَّ نَزَلَتْ : ﴿ ما كان لنّبيّ أن يكون له أسرى حتّى يثخن فى الأرض ﴾ فأخبرت النّبيّ ﷺ بإسلامى وسألته أن يحاسبنى بالعشرين الأوقيّة الّتى أُخِذَتْ منّى فأبى فأبدلني الله بها عشرين عبداً كلّهم مالى فى يده[٢] وقال محمّد بن إسحاق : وكان أكثر الأسارى يوم بدرٍ فداءً العبّاس بن عبد المطّلب . وذلك أنّه كان رجلاً موسراً فافتدى نفسه بمائة أوقيّة ذهباً[٣] قال الكلبيّ : وكان العبّاس أُسِرَ يوم بدرٍ ومعه عشرون أوقيّة من الذّهب . كان خرج بها معه إلى بدرٍ ليطعم بها النّاس . وكان أحد العشرة الّذين ضَمِنوا إطعام أهل بدر ، ولم يكن بلغته النّوْبة حتّى أُسِر ، فأُخِذَتْ معه وأخذها رسول الله ﷺ منه[٤]

(١و٢و٣) تفسير ابن كثير ٣٢٧/٢ . (٤) أسباب النّزول ٢٨٦ .

للمرّة الثّالثة فى هذا القسم يجىء هذا النّداء للمصطفى ﷺ : ﴿ يا أيّها النّبيّ ﴾ والآية الكريمة تنادى النّبيّ الكريم والرّسول العظيم ﷺ وتأمره بأن يقول لمن فى أيدى الصّحابة رضوان الله تعالى عليهم أجمعين من أسرى المشركين وقد نصرهم الله تعالى عليهم فى بدر : إن يعلم الله تعالى فى قلوبهم خيراً وميلاً صادقاً لاعتناق دين الإسلام أو إسلاماً سابقاً لم يستطيعوا أن يعلنوه من قبل وأُخِذَ منهم الفداء فإنّ الله تعالى سوف يؤتيهم خيراً من الفداء الّذى أُخِذ منهم ويغفر لهم ذنوبهم إنّ الله سبحانه وتعالى هو الغفور لمن تاب من ذنبه ، الرّحيم بكم حينما أرشدكم إلى معالم دينكم و لم يأخذكم أخذ عزيزٍ مقتدر فور ارتكابكم الذّنوب ، إنّما هداكم أجمعين إلى الطّريق القويم والصّراط المستقيم .

ومن أهمّ ما يلاحظ فى الآية الكريمة أسلوب الالتفات باستعمال ضمير المخاطب فى مواقف يجىء فيها غالباً ضمير الغائب . والمعروف أنّ ضمير المخاطب أقوى من ضمير الغائب . وكأنّ الّذين يتحوّل إليهم الخطاب يواجهون وجهاً لوجه . إنّ المصطفى ﷺ يؤمر أن يقول لمن فى أيدى أصحابه ﷺ من الأسرى : ﴿ إن يعلم الله فى قلوبكم خيراً يؤتكم خيراً ممّا أُخِذَ منكم ويغفر لكم ﴾ فى أسلوب الخطاب وليس فى أسلوب الغائب . بل إنّ الصّحابة رضوان الله تعالى عليهم يخاطبون كذلك فى القول : ﴿ يا أيّها النّبيّ قل لمن فى أيديكم من الأسرى ﴾ ويصحّ أن نفهم أنّ خطاب الأسرى فى الآية الكريمة والاهتمام بهم لأنّهم مسلمون الآن فى مجموعهم ولأنّ الآية الكريمة تُعْنَى بالفريق الّذى فى قلوب أفراده خيرٌ وإسلام . وبذلك تكون العناية بهذا الفريق المسلم لله ربّ العالمين امتداداً لما يُفْهَم من خطاب المؤمنين ونداء النّبيّ ﷺ بصفة النّبوّة من عناية واهتمام .

إنّ ربّ العزّة يعد هذا الفريق الّذى أسلم من الأسرى بأنّه جلّ وعلا سوف يؤتيهم خيراً ممّا أُخِذَ منهم من الفداء وسوف يغفر لهم ذنوبهم الّتى ارتكبوها وبخاصّة الشّرك الّذى هجروه وفرّوا منه إلى اعتناق دين الإسلام الّذى بعث الله تعالى به حبيبه المصطفى ﷺ .

ولّما كان الأسرى فريقين ، منهم من اعتنق دين الإسلام صادقاً مخلصًا ، ومنهم من نوى الغدر وبيّت الخيانة سواءٌ ظلّ على كفره أو ادّعى الإسلام ، ولّما كانت الآية الكريمة فى مجموعها من نصيب الفريق الصّادق الإيمان ، فإنّ الآية الكريمة التّالية من نصيب الفريق الآخر فإلى .

الآيـــة رقـــم (٧١)

قال تعالى : ﴿ وإن يريدوا خيانتك فقد خانوا الله من قبل فأمكن منهم . والله عليمٌ حكيم ﴾ .

إنّ الآية الكريمة تواصل خطاب المصطفى ﷺ وتقول له : وإن يرد الفريق الآخر من الأسرى ، الّذى مكّنك الله تعالى من حزّ رقاب أفراده ، خيانتك والغدر بك وإعلان الحرب بعد ذلك عليك فإنّهم قد خانوا الله تعالى من قبل فأشركوا معه جلّ وعلا فى العبادة سواه فأمكن المؤمنين منهم فى بدرٍ فقتلوا سبعين منهم وأسروا سبعين . إنّ الخيانة إذا تكرّرت منهم فإنّ العقاب حاصلٌ والسّنّة ماضية بقتلهم وأسرهم وهزيمتهم . إنّ الله سبحانه وتعالى هو العليم بحقيقة نوايا القوم وما يترتّب عليها من أقوالٍ وأفعالٍ سيجازيهم جلّ وعلا عليها . وإنّ الله سبحانه وتعالى هو الحكيم فى كلّ أقواله وأفعاله وأحكامه وفى كلّ شىء لا ربّ غيره ولا معبود بحقّ سواه جلّ وعلا .

[١٢]

« المؤمنون بعضهم أولياء بعض ، والكافرون بعضهم أولياء بعض ، وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعضٍ فى الميراث »

الآيـــات (٧٢ ــ ٧٥)

إِنَّ ٱلَّذِينَ
ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ
ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَٱلَّذِينَ
ءَامَنُواْ وَلَمْ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَىْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ ۚ
وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ
بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٧٢﴾ وَٱلَّذِينَ
كَفَرُواْ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِى
ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴿٧٣﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ
وَجَٰهَدُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ
ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٧٤﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنۢ
بَعْدُ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ مَعَكُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ مِنكُمْ ۚ وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ
بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧٥﴾

تدور آيات القسم الأخير من السّورة الكريمة حول الثّمرة اليانعة لمنهجها التربويّ الّذى آتى بفضل الله تعالى أكله فى هيئة المهاجرين والأنصار الّذين يعتبرون الجماعة الإيمانيّة النّموذجيّة والنّواة الأولى للأمّة المسلمة الّتى وُجدَت للمرّة الأولى فى المدينة المنوّرة بعد الهجرة النّبويّة الشّريفة . إنّ على الّذين آمنوا أن يهاجروا إلى المدينة المنوّرة ويسهموا فى تقوية الأمّة المسلمة ويشاركوا فى حمل الأمانة وتحمّل التّبعات وإلاّ كانوا متخلّفين رتبةً حتّى يهاجروا . وإنّ على عناصر هذه الأمّة المسلمة أن يكون بعضهم أولياء بعض وبذلك يكون الإيمان كلّه ضدّ ملّة الكفر الواحدة وإلاّ كان ثمّة فتنةٌ للمؤمنين عن دينهم وفسادٌ فى الأرض كبير . وتبّين الآيات الكريمات أهمّ نعوت هذه الأمّة المسلمة ، الّتى لها عند الله تعالى مغفرةٌ ورزقٌ كريم . وهذه الأمّة

المسلمة تتمثّل نواتها فى المهاجرين والأنصار ، وتستغلظ وتستوى على سوقها بالّذين يتّبعونهم بإحسان . وإنّ من أهمّ نعوت هذه الأمّة المسلمة من الدّاخل الأخوّة الإيمانيّة . والمعروف أنّ المصطفى ﷺ بعد الهجرة إلى المدينة المنوّرة آخى بين المهاجرين والأنصار وقال عليه الصّلاة والسّلام : تآخوا فى الله أخوين أخوين[1] وكانت هذه المؤاخاة سبباً فى أن يرث المهاجريّ الأنصاريّ والأنصاريّ المهاجريّ إضافةً إلى سبب الإيمان والهجرة . وإنّ من أهمّ نعوت هذه الأمّة من الخارج الجهاد فى سبيل الله تعالى . ولمّا كان قد سبق فى كتاب الله تعالى فى اللّوح المحفوظ أنّ أولى الأرحام بعضهم أولى ببعضٍ فى مجال الميراث فقد شاء الله تعالى أن ينسخ الإرث المؤقّت بواسطة الأخوّة الإيمانيّة ، والإيمان والهجرة ، والحِلْف الّذى كان معمولاً به قبل الإسلام وأقرّه الإسلام ومنع إنشاء أيّ حلفٍ جديدٍ فى هذا المعنى . إنّ آخر آيات سورة الأنفال الكريمة أسهمت هي والآية الكريمة السّادسة من سورة الأحزاب الكريمة فى نسخ كلّ صور الميراث المؤقّتة وتأكيد صورة الميراث الأخيرة والوحيدة كما بيّنتها آيات الميراث الثّلاث من سورة النّساء وهي الحادية عشرة والثّانية عشرة والسّادسة والسّبعون بعد المائة .

الآيـــة رقـــم (٧٢)

قال تعالى : ﴿ إنّ الّذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله والّذين آووا ونصروا أولئك بعضهم أولياء بعض . والّذين آمنوا ولم يهاجروا ما لكم من وَلايتهم من شيءٍ حتّى يهاجروا . إن استنصروكم فى الدّين فعليكم النّصر إلاّ على قومٍ بينكم وبينهم ميثاق والله بما تعلمون بصير ﴾ .

فى حديث الآية الكريمة عن وحدة الصّفّ ، وهو أحد الشّروط لنجاح الأمّة بإذن الله تعالى سلماً وحرباً أشارت إلى الفئات الثّلاث الّتى تتألّف منها الأمّة المسلمة لله ربّ العالمين آنذاك مع التّنبيه إلى ما ينبغى أن يكون بينهم من وَلايةٍ بمعنى النُّصرة[2]

---

(١) السّيرة النّبويّة ١/٥٠٤ .

(٢) انظر ـ مثلاً ـ تفسير القرطبى ٢٨٩٥ .

وطبيعة تلك النّصرة . وهذه الفئات الثّلاث هي المهاجرون والأنصار والمؤمنون الّذين لم يهاجروا و لم يغادروا ديارهم إلى المدينة المنوّرة على ساكنها أفضل الصّلاة وأتمّ التّسليم .

وبشأن المهاجرين يجيء القول : ﴿ إنّ الّذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله ﴾ إنّهم الّذين آمنوا با لله تعالى رباً ، وبالإسلام ديناً ، وبمحمّد ﷺ رسولاً ، وبالقرآن الكريم منهاجاً ، والّذين هاجروا من مكّة المكرّمة إلى المدينة المنوّرة ويلحق بهؤلاء الّذين خرجوا من ديارهم وهاجروا إلى المدينة المنوّرة . وهؤلاء المهاجرون بنصّ الآية الكريمة جاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل ا لله تعالى .

وبشأن المهاجرين تقدّمهم الآية الكريمة فى الذّكر على الأنصار ومن باب الأحرى غير الأنصار دليلاً على تقديم المهاجرين على الأنصار ، وهذا أمرٌ مجمعٌ عليه بين العلماء لا يختلفون على ذلك[١] .

وممّا يلاحظ على الجزئيّة الكريمة أنّها يتقدّم فيها قول الحقّ جلّ وعلا : ﴿ بأموالهم وأنفسهم ﴾ على القول : ﴿ فى سبيل الله ﴾ وكأنّ فى تقديم الأموال والأنفس إيماءً إلى أنّ المهاجرين قدّموا أموالهم وأنفسهم وجاهدوا بهما فى سبيل الله تعالى قبل الهجرة كما قدّموهما وجاهدوا بهما بعد الهجرة . وفى كلّ الأحوال إنّما يجاهد المهاجرون وكلّ المخلصين فى سبيل الله تعالى وحده لا شريك له وليس من أجل أيّ سببٍ آخر جلّ أو هان .

وبشأن الأنصار يجيء القول : ﴿ والّذين آووا ونصروا ﴾ إنّ الأنصار يُنْعَتون بنعتين عظيمين ، إيواء الرسول ﷺ والمهاجرين ونصر ا لله تعالى ورسوله ﷺ والمؤمنين وفيهم المهاجرون . ﴿ والّذين آووا ونصروا ﴾ « يقول : والّذين آووا رسول ا لله والمهاجرين معه ، يعنى أنّهم جعلوا لهم مأوى يأوون إليه وهو المثوى والمسكن . يقول : أسكنوهم وجعلوا لهم من منازلهم مساكن إذ أخرجهم قومهم من منازلهم ﴿ ونصروا ﴾ يقول : ونصروهم على أعدائهم وأعداء ا لله من المشركين »[٢] .

---

(١) تفسير ابن كثير ٣٢٩/٢ .

(٢) تفسير الطّبرى ٣٦/١٠ .

ومن البيّن أنّ إيواء الأنصار المهاجرين وجعل مأوىً لهم ومسكن فى مقابل ترك المهاجرين دورهم وأموالهم وراءهم فى مكّة . وهذا من فضل الله تعالى على كلٍّ من المهاجرين والأنصار . وإذا كان النّصر بمعنى نصر الأنصار الله تعالى ورسوله ﷺ والمؤمنين فإنّ للمهاجرين من نصر إخوانهم الأنصار أوفر الحظّ والنّصيب . ومن البيّن كذلك أنّ الأنصار ارتبط شرف اللّقب الّذى أكرمهم الله تعالى به وأكرمهم به رسوله ﷺ بسبب نصرهم الله تعالى والرسول ﷺ والمؤمنين وفى هذا دليلٌ على أنّ النّصر أهمّ هاتين الصّفتين ، هذا بالإضافة إلى اتّساع ميدان النّصر .

وقد كان موقف الأنصار الرّائع من إخوانهم المهاجرين موضع ثناءٍ من الحقّ جلّ وعلا ومن حبيبه ﷺ وسائر عباد الله تعالى الصّالحين . وممّا جاء فى هذا المعنى فى القرآن الكريم قول الحقّ جلّ وعلا فى سورة الحشر[1] : ﴿ للفقراء المهاجرين الّذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلاً من الله ورضواناً وينصرون الله ورسوله أولئك هم الصّادقون . والّذين تبوّءوا الدّار والإيمان من قبلهم يحبّون من هاجر إليهم ولا يجدون فى صدورهم حاجةً ممّا أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة . ومن يوق شحّ نفسه فأولئك هم المفلحون ﴾ .

إنّ كلاًّ من المهاجرين والأنصار بعضهم أولياء بعضٍ ونصراء بعض : ﴿ أولئك بعضهم أولياء بعض ﴾ ولمّا كان المجتمع المدنيّ آنذاك أو الأمّة المسلمة الّتى وُجِدَت فى المدينة المنوّرة بعد الهجرة قوامها المهاجرون والأنصار فذلك معناه أنّ بعض أجزاء الأمّة المسلمة أولياء بعض فعلى الأمّة المسلمة لله ربّ العالمين أن توحّد صفوفها وتجمع كلمتها بدعوة الحقّ وكلمة الصّدق . وهذه الأمّة المسلمة وليّها الله تعالى أمّا الأمّة الكافرة فوليّها الطّاغوت والشّيطان الرّجيم وكلّ ما يُعْبَد من دون الله تعالى . قال تعالى[2] : ﴿ الله وليّ الّذين آمنوا يخرجهم من الظّلمات إلى النّور . والّذين كفروا أولياؤهم الطّاغوت يخرجونهم من النّور إلى الظّلمات . أولئك أصحاب النّار هم فيها خالدون ﴾ .

---

(١) الآية ٨ و٩ .

(٢) سورة البقرة ٢٥٧ .

أمّا الفئة الثّالثة الّتى يتألّف منها ومن المهاجرين والأنصار الأمّة المسلمة فى المدينة المنوّرة وغيرها فإنّها الّتى يتعلّق بها القول فى الآية الكريمة ﴿ والّذين آمنوا و لم يهاجروا ما لكم من وَلايتهم من شيءٍ حتّى يهاجروا . وإن استنصروكم فى الدّين فعليكم النّصر إلاّ على قومٍ بينكم وبينهم ميثاق ﴾ وهذا الفريق الّذى آمن و لم يهاجر يُسمّى أفراده بالأعراب . جاء فى لسان العرب[1] لتبيين الفرق بين المهاجرين وغير المهاجرين القول : « وسُمّي المهاجرون مهاجرين لأنّهم تركوا ديارهم ومساكنهم الّتى نشأوا بها لله ولحقوا بدارٍ ليس لهم بها أهلٌ ولا مالٌ حين هاجروا إلى المدينة . فكلّ من فارق بلده من بدويٍّ أو حضريّ أو سكن بلداً آخر فهو مهاجرٍ ، والاسم منه الهجرة . قال الله عزّ وجلّ[2] : ﴿ ومَنْ يهاجر فى سبيل الله يجد فى الأرض مراغَماً كثيراً وسَعَة ﴾ وكلّ من أقام من البوادى بمباديهم ومحاضرهم فى القيظ و لم يلحقوا بالنّبيّ ﷺ و لم يتحوّلوا إلى أمصار المسلمين الّتى أحدثت فى الإسلام وإن كانوا مسلمين فهم غير مهاجرين ، وليس لهم فى الفيء نصيبٌ ويُسَمَّون الأعراب »

إنّ الآية الكريمة تخاطب المؤمنين بقيادة المصطفى ﷺ ممثّلين فى الفريقين الآخرين من المهاجرين والأنصار وتقول لهم بشأن الفريق الثّالث الّذى آمن ولكنّ أفراده لم يهاجروا بأنّهم ما لهم من وَلايتهم من شيءٍ ، وليس على المهاجرين والأنصار من نُصْرة هذا الفريق الثّالث الّذى لم يهاجر من شيء حتّى يهاجر من ديار الكفر إلى ديار الإسلام وبذلك يلحق بالفريق الأوّل فريق المهاجرين ويتخلّص من صفة الأَعراب .

روى الإمام أحمد عن يزيد بن الخصيب الأسلمى رضي الله عنه قال : كان رسول الله ﷺ إذا بعث أميراً على سريّةٍ أو جيش أوصاه فى خاصّة نفسه بتقوى الله وبمن معه من المسلمين خيراً وقال : اُغزوا باسم الله فى سبيل الله ، قاتلوا من كفر بالله . إذا لقيت عدوّك من المشركين فادعهم إلى إحدى ثلاث خصالٍ أو خلال . فأيّتهنّ ما أجابوك إليها فاقبل منهم وكفّ عنهم . اُدعهم إلى الإسلام فإن أجابوك

---

(١) « هجر » . (٢) سورة النّساء ١٠٠ .

فاقبل منهم وكفّ عنهم . ثمّ ادعهم إلى التّحول من دارهم إلى دار المهاجرين وأعلمهم إن فعلوا ذلك أنّ لهم ما للمهاجرين وأنّ عليهم ما على المهاجرين . فإن أبوا واختاروا دارهم فأعلمهم أنّهم يكونون كأعراب المسلمين يجرى عليهم حكم الله الّذى يجرى على المؤمنين ولا يكون لهم فى الفيء والغنيمة نصيبٌ إلاّ أن يجاهدوا مع المسلمين . فإن هم أبوا فادعهم إلى إعطاء الجزية . فإن أجابوا فاقبل منهم وكفّ عنهم . فإن أبوا فاستعن بالله وقاتلهم . انفرد به مسلم وعنده زياداتٌ أخر[1] .

ومعنى القول : ﴿ وإن استنصروكم فى الدّين فعليكم النّصر إلاّ على قومٍ بينكم وبينهم ميثاق ﴾ وإن طلب أولئك الأعراب المسلمون الّذين لم يهاجروا منكم أيّها المهاجرون والأنصار النّصر فى الدّين وضدّ أعدائهم وأعدائكم من الكافرين فعليكم النّصر والمبادرة إلى مساعدتهم والدّفاع عنهم والقتال فى صفّهم دفاعاً عن بيضة الإسلام ورفعاً لرايته عاليةً خفّاقة . **إلاّ إذا كان طلب الّذين** لم يهاجروا النّصر من المهاجرين والأنصار ضدّ قومٍ **بينهم وبين المؤمنين ميثاقٌ وعهدٌ** مؤكد فينبغى على المؤمنين الوفاء بالعهد وعدم **نقض الميثاق والالتزام بالهدنة** وإتمام العقد إلى مدّته . ونستطيع أن نفهم بداهةً أنّ **المؤمنين الّذين يطلب منهم النّصر** سوف يقومون بتقديم كلّ ما يستطيعون تقديمه **لإخوانهم عدا القتال ونقض** الميثاق من أجل رفع الظّلم عن إخوانهم وإحقاق الحقّ وإزهاق الباطل .

وتختم الآية الكريمة بالقول : ﴿ والله بما تعملون بصير ﴾ إنّ الله سبحانه وتعالى بصيرٌ بما يعمل جميع النّاس فمجازٍ كلاًّ بما عمل ، إن خيراً فخير ، وإن شراً فشرّ .

وكما كان المؤمنون بعضهم أولياء بعض فى الخير كان الكافرون بعضهم أولياء بعضٍ فى الشّرّ . وإلى الكافرين أشارت .

---

(١) تفسير ابن كثير ٣٢٩/٢ .